Approach of Ibn Hijjah al Hamawi in Dealing with Rhetorical Evidence in his Book: Khazanat al-Adab wa Ghayat al-Arab

Dr. Ahmad Ghaleb Alkresheh
Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Sciences
The World Islamic Science& Education University- Jordan.
ahmad10_5@yahoo.com

Received 18/7/2013 Accepted 2/12/2013

Abstract

This study aimed at exploring the approach followed by Ibn Hijjah al Hamawi in dealing with rhetorical evidence in his book entitled: Khazanat al-Adab wa Ghayat al-Arab. This book is distinguished by spotting Arabic rhetorical evidences in accordance with a systemetic approach through which he changed the stereotypes about explaining the rhetorical evidence which prevailed in the margins and footnotes. The new style was concerned with explaining the rhetorical evidence by analyzing its content to achieve its stylistic appreciation. This approach is distinguished by showing the evidence's vatue & supporting it with other evidences in order to compare them. The study concludes that Ibn Hijeh's approach must be revived by Critics in order to show the stylistic effects of the evidences.

منهج التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة الحمويّ في كتابه: "خِزانة الأدب وغاية الأرب"

د. أحمد غالب الخرشـة
قسم اللغة العربية-كلية الآداب والعلوم
جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة -الاردن
ahmad10_5@yahoo.com

تاريخ استلام البحث ٢٠١٣/٧/١٨ تاريخ قبول البحث ٢٠١٣/١٢/٢

ملخص

يحاول هذا البحث أن يستخلص المنهج الذي اتبعه ابن حِجَّة الحمويّ في التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ في كتابه الموسوم بـ "خِزانة الأدب وغاية الأرب"، حيث تميَّز هذا الكتاب برصد الكثير من الشَّواهد الأدبيَّة لفنون البلاغة العربيَّة التي تضمَّنها، وذلك وفق منهج حاول المؤلِّف من خلاله إخراج الشَّاهد البلاغيّ من طابع النَّمطيَّة والجمود، الذي سيطر على البلاغة العربيَّة في عصور الشروح والحواشي والمختصرات، إلى الطَّابع الأدبيّ الذي يُعنى بشرح الشَّاهد البلاغيّ وتحليله وتذوّق أسرار جماله. وقد اتضح من خلال هذا البحث أنَّ التميّز الذي حظي به ابن حِجَّة في هذا الكتاب لا يعود إلى الكم الهائل من الشَّواهد البلاغيَّة التي جمعها فحسب، بل يعود أيضاً إلى منهج التَّعامل مع هذه الشَّواهد، وطريقة عرضها ودراستها التي اعتمدت على بيان قيمة الشَّاهد، ورفده بشواهد أخرى مماثلة، وعقد الموازنات بينها، إضافة إلى الوقوف على بعض القضايا النقديَّة خلال عرضها. وخلصت الدّراسة إلى أننا بحاجة إلى تجديد منهج ابن حِجَّة، من خلال التَّعامل مع الشَّواهد البلاغيَّة بروح ذوقيَّة، تهتم بانتقاء الشَّاهد الجيد، وتحليله تحليلاً أدبياً يُظهر مواطن جماله، لما لها من أثرٍ في نفس القارئ.

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه دراسة تتناول منهج التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ في كتاب "خِزانة الأدب وغاية الأرب" لابن حِجَّة الحمويّ، أشهر أعلام الأدب والنّقد في القرن التَّاسع الهجريّ، الذين أسهموا في المحافظة على تلك الثَّروة الأدبيَّة التي ورثوها عن سابقيهم في مجال البلاغة والنّقد، وهذا القرن . كما هو معلوم . يعدُّ من القرون التي وُسمت بالجمود والخمول في الإنتاج الأدبيّ، فالبلاغة، حسبما شاهدناها في إطارها التَّاريخيّ، بدأت بالتّكوين، ثم النّمو، فالوصول إلى قمة التّوهج، وبعد ذلك مرحلة التّقعيد التي سادها الجمود، ولكنني أعارض هذه السّمة التي وُسِمَ بها هذا القرن، جاعلاً دليلي هذا الكتاب الذي يعدُّ موسوعة أدبيَّة وبلاغيَّة ونقديَّة، شملت الكثير من المنابع المعرفيَّة المتنوّعة التي أخذ منها ابن حِجَّة شواهده البلاغيَّة، وقدَّمها بثوب جديد استطاع أن يعكس من خلاله ذوقه الخاص، إضافة إلى الذّوق العام الذي تمتّع به المجتمع في عصره.

نعم، أقول إنَّ البلاغة قُعِّدت على يدي السّكاكيّ والقزوينيّ، ولم يعد المجال مفتوحاً أمام لاحقيهم للتسابق بالإتيان بمصطلحات جديدة كما كان الحال عند قدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكريّ، وابن رشيق القيروانيّ، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجانيّ، وأسامة بن منقذ، ولكنَّ البلاغة من العلوم التي لن يُغلق بابها أمام دارسيها على مر العصور، فكان هذا الكتاب خير شاهد على ذلك، إذ ضمَّ معظم ما أُلف في البلاغة والنّقد حتى عصره، ليكون أجمع كتاب نقديّ لأصول البلاغة والنّقد في عصره، وخلاصة ذكية لدراسات البلاغيين والنّقاد السابقين، ومصدراً ثرّاً لكل الدَّارسين والمتخصصين بالبحث البلاغيّ والنّقديّ، وقد خرج بحلّةٍ جديدة لم يعهدها مؤلفو البلاغة، حلّة جعلت من القديم منبعاً، وجدَّدت حسبما اقتضت ظروف العصر، فعصر ابن حِجَّة الحمويّ شهد نشوء فن شعريّ كان الهدف منه تقعيد قواعد البلاغة بصورة عامة، وقواعد البديع وفنونه بصورة خاصة، ذاك الفن هو "فن البديعيَّات"، التي تعدُّ بديعيَّة ابن حِجَّة الحمويّ، وشرحها الموسوم بـ "خِزانة الأدب وغاية الأرب" من أشهر ما نُظِمَ وفقاً لقواعده.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع أمران، أولهما: حظوة هذا الكتاب ببعض الدَّراسات القائمة على إلقاء الضوء على الجانب النّقديّ فيه، بصفته حلقة من حلقات تاريخ النّقد العربيّ القديم، دون الالتفات إلى الشَّاهد البلاغيّ الذي ظلَّ بمنأى عن الدّراسة المستقلة التي تتناوله على حدة، من خلال طريقة تأمليّة تستجلي مصادره ومدى تحقيقه لأهداف استدعائه، وقدرته على الكشف عن شخصية صاحبه، وصولاً إلى المنهج الذي التزمه في عرضه، وثانيهما: إنَّ هذا العصر يعدُّ من أسوأ عصور الأدب حظَّاً، وأقلّها عناية من حيث اهتمام الباحثين به، ولهذا حاول الباحث المشاركة في لفت الانتباه إلى أحد أعلامه؛ لما يمثّله مع ناظمي البديعيَّات وشرّاحها من اتجاه بلاغيّ أدبيّ يميل إلى الدراسة الفنيَّة التطبيقيَّة.

وقد التزم الباحث في هذه الدّراسة المنهج الوصفيّ التّحليليّ، فوقف . بعد الحديث عن دوافع تأليف الكتاب ومنهجه . على المصادر المتنوِّعة للشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة الحمويّ، ثمَّ تحدَّث عن الجدَّة والاختيار في هذه الشَّواهد، لينتقل بعد ذلك للحديث عن منهج التَّعامل مع هذه الشَّواهد، وهو منهج ارتكز على المحاور الآتية: بيان قيمة الشَّاهد البلاغيّ، ورفد هذا الشَّاهد بشواهد أخرى مماثلة، وعقد الموازنات بينها، وأخيراً الوقوف على بعض القضايا والإشارات النقديَّة خلال عرضها، وفي الختام وقف على المآخذ والعيوب التي تسجّل على شواهد ابن حِجَّة الحمويّ.

ومما هو جدير بالذكر أنَّ هناك دراسات تناولت ابن حِجَّة الحموي بشكل مباشر، ولكنَّها لا تلتقي مع هذه الدّراسة في خطِّ سيرها ولا في عمقها، وهذه الدّراسات هي: دراسة محمود رزق سليم بعنوان" تقي الدين بن حِجَّة الحموي"، ودراسة محمود الريداوي بعنوان" ابن حِجَّة الحموي شاعراً وناقداً"، ودراسة أحمد الخرشة بعنوان" المصطلح البلاغي والنقدي في كتاب خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حِجَّة الحموي"، وقد أفاد الباحث من هذه الدّراسات، كما أفاد من بعض الدّراسات الأخرى التي أسهمت – بما فيها من شذرات وإضاءات – في بناء هذا البحث ووضع خطّته، ومن هذه الدّراسات: دراسة علي أبو زيد: "البديعيَّات في الأدب العربيّ، نشأتها، تطوّرها، أثرها"، ودراسة عويض بن حمود العطوي: "منهج التَّعامل مع الشّاهد البلاغيّ بين عبد القاهر وكلّ من السكاكي والخطيب القزويني"، علاوة على الإفادة من منهج هاتين الدراستين في التنظير والتطبيق أحياناً.

وبعد، فهذا عملي، وهو جهد المقل، ولا أدّعي أنّني بلغت الكمال أو قاربته، فالكمال لصاحب الكمال وحده، فإن أصبت فبمحض فضله، وإن أخطأت فتلك طبيعة البشر، وأسأل الله السّداد والتوفيق، إنَّه سميع مجيب.

مدخل

التَّعريف بكتاب " خِزانة الأدب وغاية الأرب".

يعدُّ كتاب "خِزانة الأدب وغاية الأرب" من أنفس المصنَّفات التي خلَّفها ابن حِجَّة الحمويّ (٧٦٧ . ٨٣٧ هـ)*، وهو شرح لبديعيّته الموسومة بـ" تقديم أبي بكر"، نسبة إلى اسمه، ومن ينعم النَّظر في هذا الشَّرح يجده أكثر أهمية من البديعيَّة ذاتها، إذ جاء . كما يدلُّ عليه اسمه . خِزانة للأدب أودعها ابن حِجَّة حصيلة اطلاعه الواسع، وثقافته الغزيرة في شتّى فنون المعرفة، فغدت بذلك موسوعةً أدبيةً تجمع بين الأدب، واللغة، والبلاغة، والنقد، والتاريخ، والتراجم، ومنظوم الكلام ومنثوره، والطرائف والنوادر، وأحياناً المساجلات الأدبيَّة التي ظهرت في عصره، أي في القرن التَّاسع الهجريّ، ولعلَّ أوجز كلمة في قيمة هذا الكتاب الأدبيَّة ما ذكره أحمد بن حجر العسقلانيّ في وصفه له، إذ قال: "هو مجموع أدب قلَّ أن يوجد في غيره، ولعلَّ مقتنيه يستغني عن غيره من الكتب الأدبيَّة، ولو لم يكن له فيه إلا جودة الشَّواهد لكلِّ نوع من الأنواع، مع ما امتاز به من الاستكثار من إيراد نوادر العصرين، فإنَّ مصنِّفه مرتفع عن كلفة العارية، وهذا وحده مقصود لكلِّ حاذق"[١]، ولا بدَّ لنا . قبل أن نشرع في دراسة منهج ابن حِجَّة في التّعامل مع هذه الشّواهد . من تقديم نبذة موجزة عن هذا الكتاب نتحدَّث فيها عن دوافع تأليفه، ومنهجه.

دوافع تأليف الكتاب ومنهجه:

لقد نشطت حركة التَّأليف في البلاغة وعلومها في عصر ابن حِجَّة، فوُضعت كتبٌ كثيرة في علوم المعاني والبيان والبديع، وعلى الرّغم من أنَّها لم تكن أكثر من شروحات أو مختصرات للكتب التي أُلّفت في القرون السابقة، إلا أنَّها كانت تُعنى بالبديع عناية أكبر من تلك التي أولته إياها الكتب والمصنَّفات المتقدِّمة، حتى أُفردت لفن البديع مؤلَّفات خاصة، وعرف الشعراء والأدباء لوناً جديداً من التَّاليف في البلاغة هو " البديعيات"، وهي قصائد مطوَّلة في مدح الرّسول . صلَّى الله عليه وسلَّم . وذكر شمائله، وصفاته، ويُذكر في كلِّ بيت من أبياتها لونٌ من ألوان البديع، صراحةً أو ضمناً، وتُنظم على وزن البحر البسيط، ورويّها ميمٌ مكسورة.[٢]

ومما لا شكَّ فيه أنَّ بديعيَّة ابن حِجَّة لم تكن طفرةً بنتَ ساعتها، بل تضافرت حولها عوامل ودوافع عدَّة، تفاعلت وتكاملت، حتّى أخرجتها إلى النور مكتملة الخلق سويّة، فقد فتح ابن حِجَّة عينيه، وعاش في قرنٍ كانت فيه هذه البديعيَّات قد وُلدت، ونشأت، وتكاملت حتّى أخذت طابعها الأخير، الذي تميّزت به عن غيرها من القصائد،

---

* هو أبو المحاسن، تقي الدين، أبو بكر بن علي بن عبدالله الحمويّ، الحنفيّ، الأزراريّ، المعروف بابن حِجَّة (بالكسر) باسم الشهر، يعدُّ من أشهر أعلام الأدب في العصر المملوكي، فقد كان شاعراً على قدر كبير من المعرفة بألوان الشعر التي سادت عصره، وكاتباً مجلّلاً، وناقداً بلاغياً، ومؤلِّفاً مكثراً في مختلف ضروب التأليف، إذ بلغت تركته الأدبيَّة ما يزيد على ثلاثين مصنَّفاً، بعضها من إنتاجه الشعريّ والنثريّ، وبعضها الآخر من مختاراته الشعريّة والنثريّة، وهي بين مفقود ومخطوط ومطبوع، انظر ترجمته في: الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ٢١٩/٧، والسخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ٣٥/١١، والشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ١٦٤/١، وسليم، محمود رزق: تقي الدين بن حِجَّة الحمويّ، دار المعارف، مصر، (د.ط)، ١٩٦٢م، ص ٢٠ . ٣٥، والريداوي، محمود: ابن حِجَّة الحمويّ شاعراً وناقداً، دار قتيبة، دمشق،(د.ط)، ١٩٨٢م، ص ٤٠ . ٥٣، والخرشة، أحمد: المصطلح البلاغي والنقدي في كتاب "خزانة الأدب وغاية الأرب" لابن حِجَّة الحموي، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٤م، ص٦– ١٤.

١. خليفة، حاجي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر،(د.ط)، ١٩٨٢م، ٢٣٣/١.

٢ . انظر، أبو زيد، علي: البديعيات في الأدب العربيّ (نشأتها، تطوّرها، أثرها)، عالم الكتب، دمشق، ط١، ١٩٨٣م، ص٤٦.

وكان ذلك على يد من سبقه من نظُّامها، ولكنّها ظلّت – مع ذلك – فناً جديداً يستهوي الشّعراء، فيجدون فيه متنفّساً للتعبير عن حذقهم، وفنهم، ومهارتهم في النَّظم، ومجالاً لعرض مخزونهم الثقافيّ بعامة والأدبيّ بخاصة، وقد كانت عند ابن حِجَّة أسبابٌ كثيرةٌ حَدَتْ به ليكون واحداً من أصحاب البديعيَّات، حتّى بزَّهم وتفوَّق عليهم، أبرزها شهوة التَّأليف لديه بصورة عامة، ورغبته في التَّأليف البلاغيّ والبديعيّ بصورة خاصة، التي تعود – في تصوري – إلى مهنته كاتباً في ديوان الإنشاء، وما تتطلبه هذه المهنة من براعة في تملّك ناصية الإنشاء والتعبير بالاطلاع على البديع، ليتمكَّن الكاتب من حسن التّصرف بالألفاظ، إذ إنَّ سمة العصر هي العناية بالألفاظ أكثر من العناية بالمعاني، فهدف أن يكون في كتابه هذا فائدة تفيد الكاتب والمنشىء في صنعته[٣].

يضاف إلى ذلك السّعي إلى الشّهرة، والرَّغبة في معارضة من سبقه من أصحاب البديعيَّات، إذ سُبقت بديعيته بثلاث بديعيَّات: بديعية صفي الدين الحلّيّ، وبديعية عز الدّين الموصليّ، وبديعية ابن جابر الأندلسيّ المعروفة ببديعيَّة العميان، وقد نظر ابن حِجَّة في هذه البديعيَّات فلم ترق له، أو تعجبه، إذ قال في وصفها:" بيد أنَّي أقول، وبالله المستعان، إنَّ العميان اختصروا جانباً كبيراً من البديع، وما أجادوا النّظم فيما وقع اختيارهم عليه، والشّيخ صفي الدين الحلّيّ أجاد في الغالب لخلاصه من التورية في تسمية النَّوع، ولكنَّه قصَّر في مواضع نَبَّهتُ عليها في مظانها، والشّيخ عز الدين الموصليّ، رحمه الله، قصَّر في غالب بديعيته لالتزامه بتسمية النَّوع البديعيّ ومراعاة التورية، والبحث مقرَّر مع كلِّ واحدٍ منهم في إجادته وتقصيره عند إيراد بيته على ذلك النَّوع الوارد"[٤].

وما إن اطّلع ابن حِجَّة على هذه البديعيَّات الثلاث وقرأها، حتّى أخذ على نفسه أن يُظهر ما فيها من ثغرات ويبرز لمعارضتها، وينظم بديعية تفوق كلَّ هذه البديعيَّات، إذ صرَّح في خطبة خزانته بأنَّ غايته تتمثَّل في جمع محاسن بديعية صفي الدين الحلّيّ، وعز الدين الموصليّ . إضافة إلى محاسن بردة البوصيريّ . في بديعيته، وبناءً على هذا، وضع ابن حِجَّة نصب عينيه كلاً من البديعيتين، محاولاً استبعاد كل المآخذ التي أُخذت على كلٍّ منهما، وقد دفعه إلى المضي قدماً في هذا الميدان صديقه ناصر الدين محمد بن البارزيّ الذي وقف في دمشق على بديعية عز الدين الموصليّ، ورسم لابن حِجَّة مخطَّط معارضتها، هذا بالإضافة إلى أنَّ عصر ابن حِجَّة كان عصر تسابقٍ في تأليف الشروح؛ لتكونَ مجالاً قادراً على استيعاب ما عجزت عنه البديعيَّات الملتزمة بالقافية والبحر، ولمّا وقعت بين يديه مجموعة من المؤلَّفات البلاغيَّة التي أُلّفت قبل عصره، وأُتيح له الوقوف على كنوزها الدفينة، أخذ على نفسه أن ينظم هذه البديعية ويعكف على شرحها، إلا أنَّ الدافع الأول، وهو رغبة ابن البارزيّ، يبقى على رأس هذه الدَّوافع، وقد أشار ابن حِجَّة إلى ذلك صراحة في خطبة خزانته[٥].

أمّا بالنسبة للمنهج الذي اتبعه ابن حِجَّة في تأليف كتابه، فيتمثَّل في أنَّه كان يعمد إلى نظم البيت البديعيّ أولاً، ثمَّ إلى ذكر النّوع البديعيّ الذي ضمّنه إياه، فيعرّفه تعريفاً بلاغيّاً معتمداً على أمهات كتب البلاغيين، ولا يقتصر في أحيانٍ كثيرةٍ على تعريف واحد بل يورد أكثر من تعريف توضيحاً للنّوع، ولم يكن ابن حِجَّة . في هذا الجانب . مقلِّداً او مردِّداً لما قاله المتقدِّمون، إذ نجده غالباً ما يفرد مساحات واسعة لمناقشة البلاغيين في تعاريفهم وآرائهم ومقارنة هذه التّعريفات بعضها ببعضها الآخر، ثمَّ يرجع الى ما ذكره أصحاب البديعيَّات قبله، ويستخلص لنفسه رأياً في تعريف الأنواع البديعيَّة، كلُّ هذا في أسلوب أدبيّ وجدانيّ يثير الانفعالات، وينشّط الأذهان، ويبيّن مواطن الجمال في النص.

ومن السبل التي اتبعها ابن حِجَّة في كتابه أنَّه كان يورد أمثلةً وشواهدَ مختلفة للنَّوع البديعيّ الذي هو بصدد الحديث عنه، فبعد أن يفرغ من تعريف هذا النوع ينتقل إلى الخطوة الثانية التي التزمها في منهجه، وهي عرض الأمثله والشواهد المختلفة لهذا النوع البديعيّ . ولا مجال هنا للبسط والاسترسال في هذا الجانب، إذ سيأتي الحديث عنه في مكانه من هذه الدّراسة . ولهذا يمكن القول إنَّ ابن حِجَّة اتجه في منهجه اتجاهين: أولهما، الاتجاه العلميّ المنطقيّ الكلاميّ المتمثِّل في تحديد الأنواع البلاغيَّة والبديعيَّة وتعريفها من غير مبالغة، وفرض الأسئلة العقليَّة واستنتاج النتائج المنطقيَّة، وثانيهما: الاتجاه الأدبيّ الوجدانيّ المتمثِّل في الإكثار من الأمثلة والشّواهد، ونقدها، وتحليلها تحليلاً تطبيقياً يهذّب ذوق القارئ، وينمّي عاطفته[٦]، وقد كانت هذه الشّواهد تتبع التّعريف بالنّوع البديعيّ مباشرةً، حتّى إذا أشبع القارىء ذهنه ونفسه عاد ابن حِجَّة إلى بيته في بديعيته، وبيّن هذا النّوع البديعيّ فيه، مبرزاً مزاياه، وقدرته في نظمه وحسن سبكه، كما كان يمنح نفسه شيئاً من الثناء والتقريض؛ لينتقلَ بعد ذلك إلى البيتين المقابلين لبيته من بديعية صفي الدين الحليّ وعز الدين الموصليّ . وأحياناً من بديعيّة ابن جابر . مبيناً اتضاعهما عن بلوغ منزلة بيته.

---

٣ . انظر، الرداوي، محمود: ابن حِجَّة الحمويّ ....، ص١٩٥، والخرشة، أحمد: المصطلح البلاغي والنقدي...، ص٢٠.

٤ . الحمويّ، أبو بكر بن علي بن عبدالله بن حِجَّة: خزانة الأدب وغاية الأرب، دراسة وتحقيق: د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ٤٥١/٤.

٥. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب، ٣٠٣/١. ٣٠٦، والرداوي، محمود: ابن حِجَّة الحمويّ ....، ص ١٩٥ . ١٩٦، والخرشة، أحمد: المصطلح البلاغي والنقدي....، ص٢١-٢٢.

٦. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب، ٦٩/١.

المبحث الأوَّل:

منهج ابن حِجَّة في التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ

بعد هذه الوقفة السَّريعة على دوافع تأليف الكتاب ومنهجه، يجدر بنا أن ننطلق لنلج أبواب هذا الكتاب، ونسير في مداخل أجزائه، فنطّلع على مضمونها، ونكشف خباياها، لأنَّ فيها مادة غنية متنوّعة تستحق البحث والدراسة، وما أحسن حديث محمود رزق سليم عن هذا الكتاب! إذ يقول:" وما عليك إلا أن تجمع تعريفاته البلاغيَّة، ومعها المثل أوالمثلان، ثم تنحّيهما جانباً عن بقية الخزانة؛ لتبدو لك بقيتها مسرحاً وضيئاً متألِّقاً مليئاً بجولات الأديب الذي فاضت صوره بالأدب اللباب، وسنح خاطره بالنقدات العذاب، وفيها ما فيها من حسن اختيار، وسهولة عرض، ودقة تتابع، وجمع للمتفرِّق المتقارب"[٧]، ومثل هذا الحكم أطلقه زكي مبارك في حديثه عن شروح البديعيَّات، وينطبق حكمه هذا . في رأيي . تمام الانطباق على شرح ابن حِجَّة لبديعيته، إذ يقول:" ولأكثر هذه البديعيَّات شروح فيها الوسيط والوجيز والمبسوط، وأكثر هؤلاء الشرَّاح من المتفوِّقين في العلوم العربية، وفي شروحهم من الفوائد النّحويَّة، والصّرفيَّة، والبلاغيَّة، واللغويةَّ، والأدبيَّة، والتَّاريخيَّة، فنون أكثرها من المستملح المستطاب"[٨].

ويتضح للقارئ من هذين القولين أنَّ ابن حِجَّة اتخذ من ألوان البديع مطيةً توسَّل بها للسير في رحاب ما زخر به صدره، ووعاه عقله من فنون الأدب والمعرفة، جامعاً من الشّعر والنّثر أجمله وأطرفه، وأكثره مناسبةً للاستشهاد به، فقد عني بالشَّاهد البلاغيّ عناية كبيرة بوصفه مطلباً جمالياً، فجاءت شواهده من مختلف العصور الأدبيَّة، فحافظ بذلك على الوجه الجماليّ للبلاغة العربيَّة، وابتعد بها عن تهمة الجمود والجفاف والنمطيَّة المعروفة في كثير من الشَّواهد البلاغيَّة، إذ يتهم الشَّاهد البلاغيّ أنَّه بعد عصر ازدهاره على يد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) قد أصابه الجمود، وتسلّلت إليه النمطيّة المعروفة في كثير من شواهد العربيَّة، فأصبح الدَّارسون يرددون شواهد معينة محفوظة لا يحيدون عنها، ولا يختلفون حتّى في طريقة تحليلها وتذوّقها، فقد ذكر الشيخ أحمد مصطفى المراغي . رحمه الله . أنَّ عبد القاهر كان إماماً لأهل هذا الفن (البلاغة) " يقتدون به في وضع هذه المباحث، وطريقة شرحها وبيانها، وأخذوا الأمثلة والشَّواهد التي ذكرها في كتبه ولم يحيدوا عنها، حتّى قيل وبحق ما قيل: إنَّ من جاء بعده عيال عليه ..."[٩]، ونحن وإن كنّا نشارك الشّيخ المراغي في الإشادة بعبد القاهر، إلا أننا لا نوافقه في أنَّ من جاء بعده لم يحيدوا عن أمثلته وشواهده؛ لأننا نعلم أنَّ الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) وهو أشهر من أفاد من عبد القاهر قد حاد كثيراً عن شواهده، ولأننا سنعرف . بعد قليل . أنَّ ابن حِجَّة نوَّع في مصادره، وضمَّن خزانته كثيراً من أمثلة معاصريه وشواهدهم، مستخدماً إياها أحسن استخدام.

ويشير شوقي ضيف إلى ما حلَّ بالأدب عموماً . وخاصة في القرن السَّادس الهجريّ وما بعده . من تعقيد وجمود ونضوب، فيقول عن البلاغة في خضم ذلك:" وهذه الظاهرة نفسها من التكرار ومن إجداب العقول ومن الجمود تسري بين أصحاب البلاغة بعد عبد القاهر والزمخشري، فإذا هم لا يأتون بجديد في مباحثهم البلاغيَّة، وإذا هم يقصرون عملهم فيها على تلخيص ما كتباه جميعاً،..... فإذا هي تصبح مجموعة من القواعد الجافة كقواعد النّحو والصّرف، فالأساتذه يدرّسونها لتلاميذهم، وقد يؤلّفون فيها، دون عناية بالنصوص إلا ما يجلبونه من لدن عبد القاهر والزمخشري، ولا تظن أنَّهم يحتفظون بتحليلاتهما البديعة لنصوص الشّعر والنّثر، وآي الذكر الحكيم، فقد كان ينقصهم الذّوق المرهف، والحس الحاد، كما كانت تنقصهم الملكة البصيرة التي تستطيع تحليل النَّماذج الأدبيَّة، وتبيُّن مواطن الجمال الخفية فيها، بل أيضاً المواطن الظاهرة"[١٠]، ورغم مشاركتنا شوقي ضيف في ما ذكر في العموم، إلا أننا لا نوافقه على تحوّل البلاغة إلى قواعد جافة كقواعد النّحو والصّرف، لأنَّ هذه النظرة لا يستقيم معها إبداع، ولأنَّ صفة الثَّبات والنمطيَّة إذا كانت مقبولة في شواهد النّحو والصّرف، فإنَّها لا يمكن أن تُقبل بحال في شواهد البلاغة، وإذا كانت الشَّواهد الأخرى يمكن أن يُكتفى منها بتعيين الشَّاهد ووجه الاستشهاد، فإنَّ شواهد البلاغة تحتاج إلى نظر عميق في التحليل، وبيان أسرار الجمال دون تقيد بزمن أو نمط معين.

كما أننا لا نوافقه في قوله:" كان ينقصهم الذّوق المرهف والحس الحاد"؛ لأنَّه لا يمكن أن يخلو من ذوق، ولا من حسٍّ مرهفٍ، من كشف عن ساعده، وعاد إلى تراث الأجداد الأدبيّ؛ ليجني ثمرة ما يزيد على مئة مصنَّف تتراوح بين ديوان شعر، وكتاب بلاغة ونقد، أو كتاب أدب وترجمة وتاريخ ولغة، ويضع هذه الثمرة بين دفتي كتاب استحق أن يحمل اسم " خزانة الأدب وغاية الأرب"، فابن حِجَّة غزير الثقافة، واسع الاطلاع، دقيق الأخذ، وقد طبَّق هذه الأمور مجتمعة ليعطي للشَّاهد البلاغيّ رونقاً خاصاً؛ لأنَّه كان يدرك أنَّه لا بدَّ للشَّاهد البلاغيّ من سمات تؤهله لذلك، لعلَّ من أهمها الجمال والرّوعة وكثرة الماء والرّواء، والجزالة والقوة، والتجدد والحيوية، "ذلك أنَّ الشَّاهد البلاغيّ يتنامى مع تنامي الجمال، والجمال لا يتوقف ولا يُحد، لذا

---

٧ . سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلميّ والأدبيّ، مكتبة الآداب، الجماميز، (د.ط)، (د.ت)،١٦٥/٦.

٨ . مبارك، زكي: المدائح النبويَّة في الأدب العربيّ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، (د.ط)، ١٩٣٥م، ص١٧٠.

٩ . المراغي، أحمد مصطفى: تأريخ علوم البلاغة العربيَّة والتعريف برجالها، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٩٥٠م، ص٥٧.

١٠ . ضيف، شوقي: البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، ط٨، ١٩٩٧م، ص ٢٧٢ . ٢٧٣.

كان من أسوأ ما يؤثّر على الدّرس البلاغيّ جمود الشّاهد ونمطيته وضعف استكناه مواطن الجمال فيه"[١١].

وإذا كان محط التميّز عند ابن حِجَّة الحمويّ هو هذا الكم الهائل من الشّواهد التي ضمّنها كتابه، فإنَّ منهجه في التّعامل مع هذه الشّواهد، هو من أظهر ما تميّز به أيضاً، وهذا ما سنركّز عليه في بحثنا، وسنتاول هذا المنهج من خلال ما يأتي:

أولاً: النّوعيَّة:

أشرتُ في موطن سابق إلى غزارة ثقافة ابن حِجَّة، وسعة اطلاعه، وتنوّع مصادره المعرفيّة، فهل انعكس هذا كلُّه على شواهده البلاغيَّة؟ لعلَّ كتاب "خزانة الأدب" موضوع الدِّراسة يثبت انعكاس هذه الدعائم على الشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة، الذي لم يكتفِ بالأخذ من منهل واحد، بل ترك لنفسه الحرية بتنويع أمثلته وشواهده من حديقة معلوماته الخصبة؛ لتكون مرآة لثقافته، ويكفي أن ينظر الدّارس في محتوى الخزانة، ليلحظ تنوّع هذه الشَّواهد، واختلاف منابعها التي تمثّلت في ما يأتي:

أ.شواهد القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف:

ليس جديداً أن نقول إنَّ الغاية التي قامت من أجلها معظم علوم العربيَّة . ومنها علم البلاغة . إنّما هي تيسير فهم النّص القرآنيّ، وبيان أوجه إعجازه، وتعرّف دقائق أسراره، ومن هنا كان ابن حِجَّة . شأنه في ذلك شأن الكثير من أصحاب المؤلَّفات البلاغيّة . يؤكّد هذه الناحية، ويصرُّ على إدراك علوم البلاغة لهذه الغاية[١٢]، وما استكثاره من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم إلا دليل على ذلك، إذ بلغ عدد الشَّواهد القرآنيَّة (٤٨٧) شاهداً، يليها . غالباً . أحاديث النّبي . صلَّى الله عليه وسلَّم . فكادت هذه الطريقة أن تكون سنّة متبعة، إذ قلّما تجد نوعاً بديعياً يستشهد له ابن حِجَّة بآيات من الذكر الحكيم، إلا ويستشهد بعدها مباشرة بالحديث النبويّ الشريف، ولكننا لا ننكر أنَّ نسبة الاستشهاد بالحديث أقلُّ كثيراً منها بالآيات القرآنيَّة، إذ بلغ عدد الأحاديث النبويَّة التي استشهد بها (٧٨) حديثاً.

ومن هنا يمكننا القول إنَّ "خزانة الأدب" حملت طائفةً من الآيات الكريمة، والأحاديث الشّريفة المناسبة لمواطن الاستشهاد، ونجد مصداق ذلك في حديث ابن حِجَّة عن مفهوم "التهكّم"، إذ يقول:" هو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء، فشاهد البشارة في موضع الإنذار من الكتاب العزيز، قوله تعالى:(بشّر المنافقين بأنَّ لهم عذاباً أليماً)[١٣]، وشاهد المدح في معرض الاستهزاء بلفظ المدح، قوله تعالى:(ذُق إنَّك أنت العزيز الكريم)[١٤]،..... ومن التهكّم في السنّة الشريفة قول النّبي . صلَّى الله عليه وسلَّم . " بشّر مال البخيل بحادث أو وارث"[١٥]، هذا مثال لما تقدّم من قول، ولكنه لا يعني حتمية وقوعه على هذا النحو في الأنواع البديعيَّة جميعها التي ذكرها ابن حِجَّة في كتابه، إذ نجده . أحياناً . لا يتردد في إيراد غير شاهد من النّص القرآنيّ للنوع البديعيّ الواحد، وفي الوقت ذاته لا يورد ولو مثالاً واحداً من الأحاديث النبويّة، كما هو الحال في حديثه عن "حسن البيان"، إذ يقول:" والنور المبين في هذا الباب بيان القرآن الكريم، كقوله تعالى، وقد أراد أن يحذّر من الاغترار بالنعم:(كم تركوا من جنات وعيون* وزروع ومقام كريم* ونعمة كانوا فيها فاكهين)[١٦]، وكقوله – سبحانه وتعالى– وقد أراد أن يبيّن عن الوعد:(إنَّ المتقين في مقام أمين)[١٧]،.... وكقوله تعالى، وقد أراد أن يبيّن عن الوعيد:(إنَّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين)[١٨]، وكقوله في الاحتجاج القاطع للخصم:(وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم* قل يحييها الذي أنشأها أول مرّة وهو بكلِّ خلق عليم)[١٩]، وكقوله تعالى، وقد أراد أن يبيّن عن العدل:(ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنه)[٢٠]، وأمثال هذا كثيرة لمن أراد أن يتتبعها في القرآن"[٢١]، وعلى النقيض من ذلك نجده في بعض الأحيان يعمد إلى الاستشهاد بأمثلة من الأحاديث الشريفة، دون أن يذكر شيئاً من القرآن الكريم، وخذ مثالاً لذلك ما أورده في حديثه عن مفهوم "البسط"، إذ يقول:" هذا النوع . أعني البسط . من مستخرجات ابن أبي الأصبع، والبسط بخلاف الإيجاز، لكونه عبارة عن بسط الكلام، لكن شرطه زيادة الفائده، كقول النبي . صلَّى الله عليه وسلَّم . " الدّين النصيحة، فقلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم"[٢٢].

---

١١. العطوي، عويض بن حمود: منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر وكل من السكاكي والخطيب القزويني، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٨، ع٣٠، ١٤٢٥هـ، ص٥٠١.

١٢. انظر، أبو زيد،علي: البديعيات ....، ص٢٠٢.

١٣. سورة النساء:١٣٨.

١٤. سورة الدخان:٤٩.

١٥. الحمويّ،ابن حِجَّة: خزانة الأدب،١٩٢/٢، ولم يرد حديث صحيح بهذا المعنى، وإنّما ذكره الخطيب البغدادي في كتابه البخلاء، فقال:" أخبرنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن أبي الفوارس، قال: حدثنا أحمد بن سعيد الدمشقيّ، قال: قال عبد الله بن المعتز: بشّر مال البخيل بحادث أو وارث"، الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ): كتاب البخلاء، عناية: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٢٢.

١٦. سورة الدخان:٢٥.٢٧.

١٧. سورة الدخان:٥١.

١٨. سورة الدخان:٤٠.

١٩. سورة يس:٧٨. ٧٩.

٢٠. سورة الأنعام: ٢٨.

٢١. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٤١٠/٤.

٢٢. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب، ٢٦٤/٤، والمنذري، الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي: مختصر صحيح مسلم، حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه

وهكذا نجد آيات الكتاب العزيز وأحاديث الرّسول . صلّى الله عليه وسلّم . تنتشر في خزانة ابن حِجَّة بصفتها ذروة البلاغة وعروتها الوثقى، وما على طالب الاستزادة إلا تقليب صفحاتها، ولكنَّ هذا لا يعني . بالطّبع . أنَّ ابن حِجَّة كان يستدعي الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة عند كلِّ لون بديعي يتحدّث عنه في كتابه، بل نجده في أحايينَ كثيرةٍ يقتصر على الشَّواهد الشعريَّة فقط، ونرى ذلك في حديثه عن " التّعطّف"[٢٣]، و"الاستتباع"[٢٤]، و"التّوجيه"[٢٥]، و"المناقضة"[٢٦]، و"التّسهيل"[٢٧]، وأمثال هذه كثيرة في "خزانة الأدب".

ب. الشَّواهد الشَّعريَّة:

يدرك النَّاظر في كتاب "خزانة الأدب" أنَّ أهم ميزة تميّز بها هي كثرة الشَّواهد الشّعريَّة، حتّى ليمكن عدّه كتاباً في شواهد البلاغة الشعريَّة، لأنَّه لم يدع عصراً إلا وأخذ من شواهد شعره بقدر، بدءاً من العصر الجاهليّ، ومروراً بالعصر الإسلاميّ، والأمويّ، والعباسيّ، والأيوبيّ، وانتهاء بالعصر المملوكيّ، وأوّل ما يمكن أن نلاحظه على ابن حِجَّة في هذا الجانب أنَّه عرَّج على شعر المولَّدين، واستشهد به، كما أنَّه أطال الوقوف عند شعر المتأخِّرين من معاصريه، وحشد لهم نماذج كثيرة من الشّعر والنّثر، ومما يلاحظ . أيضاً . إكثاره من حشد النَّماذج الشّعريَّة والنّثريَّة من تأليفه، ويكفي أن تطّلع على باب " التورية" في كتابه، لتجد فيه من شعره وشعر أصدقائه ومعاصريه الشيء الكثير[٢٨]. ولم يقف عند هذا الحد، بل تجاوز ذلك ليستشهد بالموشّح والزّجل والدوبيت والمواليا[٢٩]، وحتّى لا يلومه لائم على هذا الاستشهاد بشعر المتأخِّرين ونثرهم، قدَّم بين يدي كتابه مقدِّمة لخَّص فيها آراء سابقيه التي تبيح للبلاغيين الاستشهاد بأقوال المولَّدين والمتأخِّرين على حدٍّ سواء، فلهذا قال:" وهنا بحثٌ لطيفٌ، وهو أنَّ الاستشهاد بكلام المولَّدين وغيرهم من المتأخِّرين ليس فيه نقض، لأنَّ البديع أحد علوم الأدب الستّة، وذلك أنَّك إذا نظرت في الكلام العربيّ، إمّا أن تبحث عن المعنى الذي وُضِعَ له اللفظ وهو علم اللغة، وإمّا أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه من الحذف والقلب والبدل وغير ذلك وهو علم التّصريف، وإمّا أن تبحث عن المعنى الذي يُفهم من الكلام المركَّب بحسب اختلاف أواخر الكلم وهو علم العربيَّة، وإمَّا أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوي وهو علم المعاني، وإمَّا أن تبحث عن طرق دلالة الكلام إيضاحاً وخفاءً بحسب الدلالة العقليَّة وهو علم البيان، وإمّا أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع. فالعلوم الثلاثة الأوّل لا يُستشهد عليها إلا بكلام العرب نظماً ونثراً، لأن المعتبَر فيها ضبط ألفاظهم، والعلوم الثلاثة الأخيرة يُستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم لأنَّها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذا كان الرجوع الى العقل"[٣٠].

ولعلنا لا نجانب الصّواب إذا عزونا ضخامة "خزانة الأدب" إلى الشَّواهد الشّعريَّة التي أُودعت فيها، لأنَّ ابن حِجَّة أسرف إسرافاً كبيراً في حشد هذه الشَّواهد، فهو عندما يعقد الحديث على شواهد النّوع البديعيّ لا يكتفي بإيراد البيت أو البيتين، إنّما يتجاوز ذلك إلى ذكر مقطّعات كاملة وقصائد طويلة في ذلك النوع، فكثيراً ما تجده لا يكتفي بالبيت المطلوب شاهداً، بل يعزّزه بذكر مناسبته وموضوعه، وربما يُغرم بالقصيدة كلِّها لجمالها فلا يتوانى عن إيرادها كاملة أو قريبة من الكمال، ولعلَّ المتتبِّع يجد أمثلة كثيرة لهذا الجانب في خزانة ابن حِجَّة، فهو . مثلاً . عندما يتحدّث عن "الجناس التَّام والمطرّف" يستشهد بمطلع إحدى قصائده، وهو:

يا طيّبَ الأخبارِ يا ريحَ الصّبا يا مَنْ إليهِ كلُّ قَلْبٍ قد صَبَا[٣١]

غير أنَّه لا يكتفي بذكر هذا البيت، بل يأتي على المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة فيذكرها، ثمَّ يذكر منها ثمانيةً وثلاثينَ بيتاً، إذ يقول:" وهذه القصيدة كتبتُ بها من القاهرة المحروسة، سنة اثنتين وثمانيمئة، إلى مولانا المقرّ الأشرف القاضويّ الناصريّ محمد بن البارزيّ الجهنيّ الشافعيّ، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلاميَّة المحروسة، عظَّم الله شأنه، أهزُّ جذع الأدب تشوّقاً إليه وإلى حماة، وقلتُ بعد المطلع أخاطب النسيم بما هو أرقُّ منه:

يا صادقَ الأنفاسِ يا أهل الذَّكا يا طاهرَ الأذيالِ كم لك مِنْ نَبَا
يا مَنْ نراه عبارَةً عن حاجرٍ يا رَوْحَ نجدٍ مرحباً بِكَ مرحبا
يا نسمةَ الخيرِ الذي من طيبِه تُتَنَشَّقُ الأخبارُ عن تلك الرُّبا"[٣٢]

وعلى هذه الشَّاكلة يمضي ابن حِجَّة في عرض كثير من شواهده، فيذكر الشَّاهد الشعريّ، ثمَّ يفيض في ذكر معظم أبيات القصيدة التي أُخذ منها هذا الشَّاهد، ليس هذا حسب، بل تذكّره القصيدة أو المقطوعة . أحياناً . بقصيدة أو مقطوعة شعريَّة أخرى، فيذكرها أو يذكر عدّة أبيات منها، وقد لا يشبع هذا نهمه، فيبدأ بذكر ما استُحسِن لهذا الشاعر واستُجيد له، دون أن يشترط موافقة ذلك

ووضع فهارسه:د.مصطفى ديب البغا، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٣، ٢٠٠٠م، " حديث رقم ١٢٠٩ضمن كتاب رقم ٣٧: كتاب الإمارة"، ص٣٦٩.

[٢٣] . انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٢٥٣/٤.

[٢٤] . انظر، المصدر نفسه،٢٥٥/٤.

[٢٥] . انظر، المصدر نفسه،٣٥٠/٢.

[٢٦] . انظر، المصدر نفسه،٢٦٠/٢.

[٢٧] . انظر، المصدر نفسه،٤٠٢/٤.٤٠٨.

[٢٨] . انظر، المصدر نفسه،١٨٤/٣.٥٤٨.

[٢٩] . انظر، المصدر نفسه،٤٦٠/٢.٤٦١، ٤٥٢/١.٤٥٤، ٣٩٢/٣، ٤٦١/٣.

[٣٠] . الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٣١٤/١.٣١٥.

[٣١] . انظر، المصدر نفسه،٤٢٥/١.

[٣٢] . الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٤٢٥/١.٤٢٨.

لموطن الاستشهاد الذي هو فيه، وقد يخطر له أن يقرن بعض عثرات هذا الشاعر بما ذكره من المستجاد له، ففي حديثه في باب "حسن الابتداء وبراعة الاستهلال" يستعرض الشَّواهد الجيدة على براعة الاستهلال، ويذكر من هذه الشَّواهد بيتاً لأبي الطيب المتنبي:

أتراها لكثرةِ العشّاقِ تحسبُ الدَّمعَ خلقةً في المآقي[٣٣]

ولكنه لم يقف عند هذا البيت، بل تطرّق لذكر بيتٍ آخر يعدُّ من براعات الاستهلال التي أخفق المتنبي بها، ممّا جعلها موطن استهجان أهل الذَّوق والأدب، فقال:" وعابوا على أبي الطيب المتنبي خطابه لممدوحه في ابتداء قصيدة حيث قال:

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافياً وحَسْبُ المنايا أن يكُنَّ أمانيا"[٣٤]

وهكذا تتوارد أمامك فرسان الشَّواهد الشّعريَّة . زرافاتٍ ووحداناً . دون أن تقتصر على شاعر أو عصر معيّن، ولهذا مزيّتان: إحداهما: أنَّها من أبيات الاستشهاد ما لم تكن استطراداً، وثانيتهما: أنَّها كانت تُؤخذ من عصور مختلفة، تبدأ بالعصر الجاهليّ وتنتهي بعصر المؤلِّف، ومما يزيد هذه الشَّواهد الشعريَّة أهمية أنَّ ابن حِجَّة عندما يصل إلى زمنه، ويستشهد بشعر مَنْ يعرف من معاصريه وأصدقائه، فإنَّ ما يورده من أشعارهم . في معظم الأحيان . نفتقر إليه، وقد لا نظفر به في غير "خزانة الأدب"؛ لإغفاله من الذين صنَّفوا كتب الشعر والأدب في ذلك العصر[٣٥]. وعليه فخزانة الأدب خير معين على تصوّر الحياة الأدبيَّة في عصر ابن حِجَّة، ولو استحضرنا أشعاره وحدها في خزانته لكانت خير شاهد على ما ذهبنا إليه، وهذا ما يدفعنا إلى العناية بشواهد هذا الكتاب ودراستها.

ج. الشَّواهد النَّثريَّة:

لمّا كانت البلاغة بفنونها المختلفة غير مقتصرة على الشّعر دون النّثر، ولمّا كان ابن حِجَّة من أرباب الشّعر والنّثر، أصبح من الطبيعي أن لا تقتصر شواهده على الشّعر وحده، بل إنَّه وجد في النثر مادةً أخرى تكشف جانباً من جوانب ثقافته، وتنمُّ عن طول باعه في هذا المجال، فكادت أن تكون أمثلته النثريَّة بقدر أمثلته الشعريَّة أو دونها بقليل، إذ اتخذ من رسائله وأقوال البلغاء، وخطب العلماء، وأمثال الفصحاء، ومناظرات الأدباء ومقاماتهم مادةً هامةً في الاستشهاد بها إلى جانب الشّعر[٣٦]، ففي حديثه عن "براعة الاستهلال" يطنب . بعض الشيء . في إيراد الشّواهد النثريَّة، ويفرد مساحةً واسعةً لهذا الجانب تحت عنوان" براعة الاستهلال في النثر"، يبدأها بقوله:" انتهى ما أوردته هنا من البراعات البارعة نظماً، وأمّا براعات النثر فإنَّها مثلها، إن لم تكن براعة الخطبة، أو الرّسالة، أو صدر الكتاب المصنَّف دالّة على غرض المنشئ ، وإلا فليست براعة استهلال"[٣٧]، لتتوالى بعد ذلك الكثير من براعات الاستهلال التي استحسنها ابن حِجَّة، وحظيت بإعجابه.

ويظهر جلياً حرص ابن حِجَّة على استحضار الشّواهد النثريَّة، والتمثيل بها في معرض حديثه عن الأنواع البديعيَّة، وليس أدلّ على هذا الحرص ما نجده في باب "الانسجام" من تقديمه للشَّواهد النَّثريَّة . على غير عادته . على الشَّواهد الشّعريَّة[٣٨]، وقد يسأل سائل فيقول: هل سار ابن حِجَّة في أخذه الشَّواهد النَّثريَّة على طريقته في أخذ الشَّواهد الشّعريَّة؟ أي هل كان ابن حِجَّة يورد نصوصاً نثريَّة كاملة، أو أنَّه كان يكتفي بإيراد مقتطفات أو أجزاء محدَّدة من هذه النّصوص؟ والحقيقة أنَّ ابن حِجَّة قد سار في توظيف الشّواهد النثريَّة على الطريق ذاته الذي سلكه في توظيف الشّواهد الشعريَّة، فقد يكون الشَّاهد النَّثريّ مثلاً سائراً، أو بعض خطبة، وقد يطول حتّى يتضمّن نصّاً نثريّاً كاملاً، فهو . مثلاً . عندما يتحدّث عن "التغاير" يورد قولاً لابن أبي الأصبع في بيت أبي تمام المشهور:

السّيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ في حدّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللّعبِ

ثمَّ يقول:" وقد عنَّ لي هنا أن أرفع للمتأخّرين في التقديم راية، ليعلمَ المنكر الفرق بين البداية والنهاية، فإنَّ الشيخ جمال الدين بن نُباتة، رحمه الله، أظهر في المغايرة بين السّيف والقلم ما صدق به قول القائل:

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانه لآتٍ بما لم تستطعْهُ الأوائلُ

من ذلك قوله في رسالة "المفاخرة والمغايرة" في مدح كلِّ واحدٍ منهما وذمّه: فبرز القلمُ بإفصاحه، ونشط لارتياحه، ورقى من الأنامل على أعواده، وقام خطيباً بمحاسنه في حلّة مداده، والتفت إلى السيف، فقال:..... فعند ذلك نهض قائم السيف عجلاً، وتلمّظ لسانه للقول مرتجلاً، وقال:....."[٣٩]، ويورد الرسالة كلَّها رغم طولها.

د. بديعيَّات:

استشهد ابن حِجَّة في معرض حديثه عن الفنون البلاغيَّة التي حوتها خزانته بأبيات البديعيَّات التي سبقت بديعيّته، وهي: بديعيَّة صفي الدّين الحلّيّ، وبديعيَّة عزالدّين الموصليّ، وبديعيَّة ابن جابر الأندلسيّ، أو ما يُعرف باسم "بديعيَّة العميان" . أحياناً . ومثال ذلك ما أورده في باب "الطّباق"، إذ يقول:" الشّيخ صفي الدّين لم يأتِ بالمطابقة في بديعيته إلا مجرَّدة، وبيته:

---

٣٣. انظر، المصدر نفسه،٣٠٩/١.

٣٤. المصدر نفسه،٣١١/١.

٣٥. انظر، أبو زيد،علي: البديعيات ....، ص٢٠٤.

٣٦ . أبو زيد، علي: البديعيات ....، ص٢٠٦.

٣٧ . الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٣٥٠/١.

٣٨ . انظر، المصدر نفسه،٣١.٢٦/٣.

٣٩ . الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٢٣٨.٢١٨/٢.

قد طالَ ليلي وأجفاني به قَصُرَتْ عن الرُّقادِ فلم أُصبحْ ولم أَنَمِ

وبيت العميان مثله، ولكنَّه عامرٌ بالرّكة والعقادة، وهو:

واسهرْ إذا نامَ سارٍ، وامضِ حيثُ ونى واسمحْ إذا شحَّ نفساً، واسرِ إن يَقُمِ

وبيت الشّيخ عز الدّين الموصليّ . رحمه الله تعالى . هو:

أبكي فتضحكُ مِنْ دُرٍّ مطابقةً حتّى تشابه منثورٌ بمنتظمِ

.... وبيت بديعيتي هو:

بوحشةٍ بدّلوا أُنسي وقد خفضُوا قدري وزادوا عُلّواً في طباقهِمِ"(٤٠)

فقد أراد ابن حِجَّة أن ينبّه على تفوّقه وتقدّمه على أقرانه من أصحاب البديعيَّات الذين سبقوه، ولكنَّه . ومن غير قصد . استشهد بأبياتهم على فن "الطّباق"، وحفظ لنا مجموعة من البديعيَّات كادت أن تُفقد لولا وجودها في خزانته، ولعلَّ ابن حِجَّة من أوائل العاملين على حفظها عندما جمع هذه البديعيَّات الثلاث إلى جانب بديعيته.

هـ. فنون مختلفة:

تتسع دائرة الشَّواهد البلاغيَّة في "خزانة الأدب"، ولا تقف عند ما سبق ذكره، بل أنَّ من يتجوّل في جنانها، ويبحث في رفوفها، لا بدَّ أن يجد فيها الكثير من اللفتات البديعة والفنون المنوّعة، ولا عجب في ذلك، إذا ما علمنا أنَّ ابن حِجَّة . كغيره من شرَّاح البديعيات . كان مثقّفاً ثقافة إسلاميَّة عربيَّة متنوّعة، فجاءت خزانته صورة عن هذه الثقافة التي تمثّلت بكثير من وجوه الفقه، والتّفسير، والنّحو، واللغة، والعروض، والبلاغة(٤١)؛ لأنَّ شرح الفن البلاغيّ يتطلّب معرفة بمثل هذه العلوم، ودليل ذلك ما نجده في سياق حديثه في باب "الانسجام" إذ يعرّج على بحور الشّعر العربيّ، ويمثّل على كلّ بحرٍ منها ببيتٍ من الشّعر يُظهر وزنه، ويذكر ما وافق هذا الوزن من النَّص القرآنيّ دون قصد، فيقول:" فمن الطّويل الذي جاء على أصل الدائرة في القرآن العظيم، قوله تعالى:" فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"(٤٢)، وتفعيله القياسي: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن، كقول الشاعر:

ألا يا صبا نَجْدٍ متى هجتِ من نَجْدِ فقد زادني مسراكِ وَجْداً على وجدي

وجاء من المتقارب من العروض الأولى الوافية، قوله تعالى:" وأُملي لهم إنَّ كيدي متين"(٤٣)، والتّفعيل:"فعولن فعولن فعولن فعولن"، كقول الشَّاعر:

فأمَّا تميمٌ تميمُ بن مرٍّ فألفاهُمُ القومُ دوني نياما"(٤٤)

ويعقّب ابن حِجَّة على ذلك، فيقول:".... وقد أوردتُ هنا خمسة عشر بحراً؛ ولم أذكر المتدارك إذ هو مُحْدَثٌ اخترعه المتأخّرون، ولم يعرفه العرب في الزَّمن المتقدّم، وهو خارج عن الخمسة عشر بحراً، وقال ابن الحاجب في عروضه:

وخمسةَ عشر دون ما مُتَدَارَكٍ وما عدَّهُ منها الخليلُ فعدَّلا"(٤٥)

فدعني أنظر وإياك لهذا النَّموذج الذي اخترته؛ ليتضح لنا كيف استطاع ابن حِجَّة أن يلخّص قواعد علم العروض ويضعها في متن كتابه؛ لأنَّه أراد له أن يكون خزانةً للأدب، فهل استطاع فعل ذلك حقّاً؟ أقول: نعم، إذ إنَّ ابن حِجَّة لم يكتفِ بشواهد القرآن الكريم، والحديث النّبويّ الشّريف، والأدب على امتداد عصوره شعراً ونثراً، بل جمع إلى جانب هذا كلّه علوماً مختلفةً، ويكفي أن تنظر . إضافة إلى هذا النّموذج . إلى باب "التّشريع" لترى كيف أشبع ابن حِجَّة ذهن القارئ بدقائق علم العروض(٤٦)، ليس هذا حسب، بل إنَّ من يطالع باب "الاقتباس" يجد أنَّ ابن حِجَّة قد توسّع في شواهد هذا الفن البلاغيّ، فجاء باقتباسات من مسائل الفقه، وعلم المنطق، وعلم الجدل، وعلم النَّحو(٤٧)، وهكذا أصبحت "خزانة الأدب" بشواهدها المتنوّعة معرضاً رائعاً لفنون وعلوم مختلفة، لهذا ترى نفسك . كما يقول محمود رزق سليم . وأنت تقرأ هذا السّفر القيّم "جوَّاب أودية، وشهَّاد أندية، طابت مجانيها، وزهت معانيها، تدنو قطوفها وإن اختلفت ثمراتها"(٤٨).

ثانياً . الجدَّة والاختيار

لا نستطيع الزعم أنَّ ابن حِجَّة قد ابتكر تلك الشَّواهد كلَّها، بمعنى أنَّه لم يستفد، أو يستند على من سبقه في بعضها، فهو لا ينكر إفادته في شواهده ممن جاء قبله من أعلام البلاغة والنقد، فها هو عند حديثه عن "التوليد" يقول:" وقال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع في "تحرير التحبير": أغرب ما سمعتُ في التوليد قول بعض العجم:

كأنَّ عذارَهُ في الخدِّ لامٌ ومبسمَهُ الشَّهيَّ العذبَ صادُ
وطرَّةَ شَعْرِهِ ليلٌ بهيمٌ فلا عجبٌ إذا سُرِقَ الرّمادُ"(٤٩)

وفي حديثه عن الإغراق يقول:" ومما استشهدوا به على هذا النوع .... قول امرئ القيس:

تنوّرتها من أذرعات وأهلها بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالي" (٥٠)

٤٠. المصدر نفسه،٢/٩٦.٩٨.
٤١. انظر، أبو زيد،علي: البديعيات ....، ص208.
٤٢. سورة الكهف:٢٩.
٤٣. سورة الأعراف:١٨٣، والقلم:٤٥.
٤٤. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب:٣/٢٦.٣١.
٤٥. المصدر نفسه،٣/٣١.
٤٦. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٢/٢٨٥.٢٩٣.
٤٧. انظر، المصدر نفسه،٤/٣٩٢.٤٠١.
٤٨. سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك،٦/١٦٤.
٤٩. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٤/٢١.
٥٠. المصدر نفسه،٣/١٤٣.

ومعرفة هذه الشَّواهد لا تحتاج إلى كبير عناء لمن تصفّح "خزانة الأدب"، حيث يستطيع الدّارس أن يلحظها بسهولة، ويعود لمصادرها حسبما أشار إليها ابن حِجَّة، ذلك أنَّه كان يسمّي المؤلَّفات البلاغيَّة . التي أفاد منها في تعريفاته وشواهده . ويسمّي مؤلِّفها حيناً، ويكتفي باسمها أو باسم مؤلِّفها حيناً آخر، ففي حديثه عن "الاشتقاق" مثلاً، قال:"هذا النوع .... استخرجه الإمام أبو هلال العسكري، وذكره في آخر أنواع البديع من كتابه المعروف بالصناعتين،..... وهذا النوع ما ذكره القاضي جلال الدين القزويني في "التلخيص" ولا في "الإيضاح"، ولا ذكره الشّهاب محمود في "حسن التوسّل"....."[٥١]، وفي حديثه عن "الترتيب" قال:" هذا النوع .... من استخراجات التيفاشيّ، ذكره في كتابه، وسمّاه بهذا الاسم"[٥٢].

ونرى حقّاً علينا . ونحن في هذا السّياق . أن ننصف هذا الرجل، فنقول: إنَّ جهد ابن حِجَّة في شواهده لم يكن مقتصراً على جمعها من بطون الكتب السابقة . كما يبدو للوهلة الأولى . فمثل هذا العمل يستطيع أي أديب النهوض به، وإنما نستطيع أن نسجّل له هنا مزيتين، أولاهما: عنايته البالغة بأدباء العصرين الأيوبيّ والمملوكيّ كالقاضي الفاضل، وابن سناء الملك، وابن نُباتة المصريّ، وبرهان الدين القيراطيّ،..... وغيرهم، فهؤلاء أئمة الأدب، ومن حقّهم على ابن حِجَّة . وهو من التَّابعين لهم، والمعتنقين لمذاهبهم . أن يكون لشعرهم ونثرهم قسطٌ وفيرٌ، ونصيبٌ كبيرٌ من خزانة أدبه، ويبدو أنَّ هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أدنى دليل، فقد خصَّهم بأوفى حظ، وأرحب نصيب، فأصبحت خزانته سجلاً حافلاً للخفي الطلي من أشعارهم، وللضال المنسي من أخبارهم، فضلاً عن المغمورين منهم، والمنكورين الذين أضفى عليهم شهرة ووجوداً.

وثانيتهما: شخصيته البارزة فيما يعرض من شواهد، وقد تجلّت معالم هذه الشخصيّة في ثقته بنفسه، وإكثاره من الاستشهاد بأمثلة من أدبه: شعراً ونثراً، هذا بالإضافة إلى شعر أصدقائه ومعاصريه، "وهذا المنهج هو الذي ينبغي أن يسود في مؤلَّفات البلاغة؛ لأنَّ إيراد الشَّواهد من إبداعات العصر أقرب إلى استبصار جوانب الجمال، من شواهد بعيدة في صورها عن الزّمن الذي يؤلّف فيه المؤلِّف كتابه، مع الاحتفاظ بالسّمات الأصلية والمعالم العامة لجماليات القول العربيّ، وهذا ما فقدته كثير من المؤلَّفات التي تلت عبد القاهر"[٥٣].

وتتجلّى معالم هذه الشخصيّة . أيضاً . في قضية أخرى قد يكون لعامل الذّوق عند ابن حِجَّة أثرٌ كبيرٌ فيها، وهي قضية "الاختيار" إذ اختار ابن حِجَّة شواهده البلاغيَّة معوّلاً على ذوقه الذي تعهّده بالعناية والتدريب، فانتقى في ضوئه شواهده بفنيّة عالية، أظهرت سمةً من سماته الشخصيّة، فهو مهما حاول أن يخفي شخصيته الخاصة وراء المنهج الذي التزمه، إلا أنَّ هذه الشَّواهد تبقى دالةً عليه، واشيةً بما يفضِّل من النماذج الشّعريَّة والنثريَّة، فالمرء يُعرف باختياره[٥٤]:

قَدْ عرفناكَ باختيارِكَ إذ كا نَ دليلاً على اللبيبِ اختيارُهْ

أو كما قال ابن عبدربه (ت٣٢٨هـ) في عقده الفريد:" اختيار الرجل وافد عقله"[٥٥]، أي صادر عنه، وهو من ثمَّ دليلٌ عليه؛ لأنَّ الوقوف على نماذج معينة مع توافر غيرها يشي . دون شك . بالمبدأ الذي ينطلق منه صاحبه، وبالغاية التي يرمي إليها.

فابن حِجَّة خبير ذوّاق يورد من القصيدة بيتاً هو بيت الاستشهاد، إلا أنَّه يقول: وممّا تخيّرته من هذه القصيدة كذا وكذا، ويذكر عدّة أبيات، أو يستكمل القصيدة، ويعتذر بعد إيرادها كاملةً بأنَّ ما فيها من الطَّلاوة وحسن السّبك هو الذي جعله يورد ما أورد، فهو يأخذ شعراً أو يترك آخر؛ لما يحسّه فيه من فنيَّة، أو يستجيده فيه من معنى اعتماداً على الذّوق، وقد سلك هذا المسلك مع من يحبّهم من الشّعراء كالمتنبي، وابن نُباتة المصريّ، إذ يقول في باب "إرسال المثل":" وقد عنَّ لي أن أجمع هنا ما حلا بذوقي من أمثال أبي الطيب المتنبي ..."[٥٦]، وفي موضع آخر من باب "حسن الابتداء وبراعة الاستهلال" يقول:" وممّا يعذب في الذّوق،....قول ابن قاضي ميلة:

يزيدُ الهوى دمعي وقلبي المعنَّفُ ويُحيي جُفوني الوَجْدُ وهو المُكلِّف"[٥٧]

وأمثال هذه الأقوال التي تبرز ذوق ابن حِجَّة كثيرة في خزانته، على أنَّه ينبغي لنا أن ننبّه هنا على أنَّ ابن حِجَّة لم يعلّل هذا الذّوق أحياناً، ولم يورد مقاييس الجودة فيه؛ وهذا أمرٌ طبيعي، لأنَّه لا يؤلّف كتاباً فكريّاً أو دراسة نقديَّة، بل هو شاعر فنان يتذوّق الجمال، ويختار ما يستجيده بذوقه الرَّاقي، دون أن يتبيّن علّةً لما يستحسنه على الأغلب، وهذا هو أسلوب كلِّ من اختار معتمداً على ذوقه وطبعه؛ لأنَّ "ما يختاره النَّاقد الحاذق قد يتفق فيه ما لو سُئِلَ عن سبب اختياره إياه وعن الدّلالة عليه لم يمكنه في الجواب إلا أن يقول: هكذا قضية طبعي، أو ارجع إلى غيري ممّن له الدّربة والعلم بمثله، فإنَّه يحكم بمثل حكمي"[٥٨]، وقد أشار الآمدي (ت٣٧٠هـ) إلى مثل هذا الرأي، إذ رأى أنَّ للجمال والقبح أسباباً وعللاً يمكن أحياناً لأهل العلم بالشعر الوقوف عليها، إلا أنَّه أدرك أنَّ بعض مواضع الجمال والقبح لا يمكن بيان عللها والكشف عن أسبابها، وإنَّما يهتدي إليها صاحب الذّوق

---

٥١. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٦٣/٤.

٥٢. المصدر نفسه،٦٠/٤.

٥٣. العطوي، عويض بن حمود: منهج التعامل مع الشاهد البلاغي ...، ص٥٠٨.٥٠٩.

٥٤. انظر، الأندلسيّ، أحمد بن محمد بن عبدربه: العقد الفريد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٩م،٢٠/١.

٥٥. المصدر نفسه،٢٠/١.

٥٦. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،١٣٢/٢.

٥٧. المصدر نفسه،٣١٠/١.

٥٨. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن: شرح ديوان الحماسة، نشره: أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، ١٩٩١م،١٥/١.

دون أن يتمكّن من الاحتجاج لها[٥٩]، وهذا هو منهج ابن حِجَّة في أغلب شواهده، لا يعلّل سرَّ الجمال فيها، ولكنه كان حريصاً . على الأقل . على أن يُشعر القارئ به، ويدلّه عليه بعبارات ولمحات تحيط بالشَّاهد . تسبقه أو تلحقه . كقوله:" وممّا يرشف الذّوق حلاوته في هذا النوع قول....."[٦٠]، وقوله:" ومن أحلى ما يستعذب في الذوق من هذا النوع قول...."[٦١]، ومثل هذا الملاحظات كثيرة في خزانة الأدب، وهي ملاحظات قيّمة، تنبئ . بلا شك . عن قدرة واضحة على معرفة ابن حِجَّة مواطن الجمال والإبداع في الشَّواهد، وما فيها من بلاغة دعته إلى الاستشهاد بها، كما أنَّها تنبئ . في رأيي . عن اهتمام ابن حِجَّة بتربية الذّوق عند المتلقي، ودعوته إلى إعمال ذهنه لاستكناه أسرار الجمال ومواضع الحسن في شواهده البلاغيَّة، وذلك بعد أن يفتح له الباب، ويخاطب وجدانه بمثل العبارات السابقة، أو بمثل تعليقه في باب "مراعاة النظير" على قول الأمير مجير الدين بن تميم:

لو كنتَ تشهدُني وقد حَمِيَ الوغى ... في موقفٍ ما الموتُ عنه بمعزلِ
لترى أنابيبَ القناةِ على يدي ... تجري دماً من تحت ظلِّ القسطلِ

انظر أيّها المتأمِّل، ما أحسن ما ناسب مع تحمّسه بين "الأنابيب" و"القناة"، و"الجريان" و"القسطل"....."[٦٢].

أليس هذا تدريباً عملياً على تربية ذوق المتلقي، ودعوته لمعرفة مواطن الجمال وأسراره؟ لذا لا أظن أحداً يُمعن النظر في شواهد ابن حِجَّة، ثمَّ لا تهتزُّ نفسه وتتوق إلى تحسّس مواطن الجمال وكشف الحُجب عنها، ولا غرابة في ذلك؛ لأنَّ ابن حِجَّة لم يجعل الذّوق أساساً في عملية اختيار الشَّواهد فحسب، بل جعله . كذلك . هدفاً لهذه الشَّواهد، يربّي بوساطتها ذوق المتلقي في عصره، ويحفزه لمزيد من التفكير والتأمّل . كما هو واضح في المثال السَّابق . فالقضية ليست جمعاً للشَّواهد، فضلاً عن تكرارها، وليست هي النظرة العُجلى لمواطن الجمال، بل الأمر أبعد من ذلك، فلا بدَّ للقارئ من إعمال الفكر، وكدِّ الذهن؛ لاكتشاف مواطن الجمال، ومحاولة تفسيره، ومن هنا استطاع ابن حِجَّة . بفضل منهجه هذا . أن يردَّ للبلاغة نضارتها، وأن يجري في أعوادها ماء الأدب، وأن يعيدها مرة أخرى إلى زمان عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) وغيره ممّن يفهمون البلاغة فهماً أدبياً عماده الذّوق، لا فهماً ذهنياً عماده المنطق على نمط السَّكاكي (ت٦٢٦هـ) والقزويني (ت٧٣٩هـ)، ولو فعل ابن حِجَّة ذلك لضربنا صفحاً عن شواهده وعن كتابه هذا، ولكانت "خزانته" طبعةً جديدةً من كتب البلاغة التي تقدّمتها، ولما راعنا منها ما راعنا، وحسبك ما فيها من شواهد وأمثلة تقيّد هذا الرأي بسلاسل الصّدق والتَّأكيد.

ثالثاً . العرض الأدبيّ للشَّواهد

لعلَّ المطالع لكتاب "خِزانة الأدب" يدرك أنَّ ابن حِجَّة قد سار في عرض شواهده البلاغيَّة وفق منهج يتسم بالدّقة والوضوح، ولعلي لا أبالغ إذا قلت إنَّه طبَّق منهجه هذا على معظم شواهده، ويمكننا من خلال النَّظر في هذا المنهج أن نتلمَّس أبرز سماته التي تمثَّلت فيما يأتي:

أ. بيان قيمة الشَّاهد:

لقد بان لنا في سياق ما سبق شيء من منهج ابن حِجَّة في خزانته، وبعض من طريقته التي سلكها في عرض شواهده، التي تتلخّص في أنَّه يعرض أبيات بديعيته تباعاً، وكلّما عرض بيتاً منها، نبَّه على النَّوع البديعيّ الذي يتضمّنه، وأورد له تعريفاً يتسم بكثيرٍ من الوضوح، ثمَّ يعرض شواهد وأمثلة كثيرة لهذا النَّوع البديعيّ، ويمهّد لكلّ شاهدٍ . غالباً . أو يعقّب عليه بكلمة تدلُّ على قيمة هذا الشَّاهد، وتبيّن وجه حسنه أو قبحه، فالذي يقرأ "خِزانة الأدب" يجد أنَّ ابن حِجَّة كان يعتمد على الفنون البديعيَّة في بادئ الأمر؛ لينطلق منها جامعاً من الشّعر والنّثر أجمله، وأطرفه، وأكثره مناسبة للاستشهاد به، رغم التّعريج على المستقبح المرذول من الشَّواهد . كما سيأتي لاحقاً . إلا أنَّ استحضار هذه الشَّواهد، وجمعها، وانتقاءها من رياض الشّعر والنّثر خضع لعمليَّة نقديَّة هامّة وبارزة، فالشَّواهد كثيرة وابن حِجَّة " أمامها صيّاد بارع تمرُّ الشَّواهد أمامه، أو يستعرضها، ثمَّ يقتنص منها ما يروق له، ويجد فيه بغيته ممّا يناسب حديثه، سواء من حيث جودة الشَّاهد، وجماله، وإصابة صاحبه، أو من حيث رداءته وكبوة صاحبه به، ثمَّ لا يكتفي الشَّارح . أي ابن حِجَّة . بعرض صيده هذا، بل يقرنه بعبارات تدلُّ على قيمة هذا الشاهد"[٦٣]، فكثيراً ما يتردد على لسانه مثل هذه الأقوال:" وأحسن ما وقع في هذا الباب...."، و"من محاسن هذا الفن...."، و"من براعاته...."، و"من لطائفه...."، و"ممّا يؤخذ عليه...."، و"ممّا يستقبح...."، إلى آخر ما هنالك من العبارات الحكميَّة النقديَّة التي تستند إلى خلفيَّة معينة هي من النّقد بلا شك.

ويلاحظ القارئ في مواضع مختلفة من "خِزانة الأدب" أنَّ ابن حِجَّة كان يخرج بين الحين والآخر . أثناء عرضه للشَّواهد وبيان قيمتها . عن طريقة التذوّق المحضة والحكم بالجمال والحسن، أو القبح والضعف، دون توضيح سبب ذلك كما أسلفنا، إلى تعليل هذا الحكم وإظهار دوافعه، والإشارة إلى مواطن الجودة أو الرداءة فيه، ونحن لا نكاد نجد أحداً تعرّض للحديث عن ابن حِجَّة إلا ويشيد بهذا الجانب الرَّائع عنده، فهو "ناقد ذو ذوق، يعرض النَّص ويسلّط عليه مجهر نقده

---

٥٩. انظر، الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م، ١/٤١٠-٤١٤.

٦٠. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٢/٣١٨.

٦١. المصدر نفسه،٢/٣٤٠.

٦٢. المصدر نفسه،٢/٣٤١.

٦٣. أبو زيد، علي: البديعيات ....، ص٢٣٣.

وذوقه، ويدلي برأيه فيه في جرأة قد يعدّها البعض مبالغة، وهو يتجه تارة إلى الاستحسان، وآناً إلى الاستقباح، وفي أكثر الأحايين يكشف عن أسباب استحسانه أو استقباحه، ولا يهمّه في ذلك، ولا يضيره أن يخالف المتقدّمين أو المعاصرين"[٦٤].

وهذه الميزة في تعامل ابن حِجَّة مع الشَّاهد لا تخفى، فهي جليَّة في أغلب تحليلاته؛ لأنَّها سمة من سمات أسلوبه، ولك أن تتأمَّل . على سبيل المثال لا الحصر . المناقشة الطويلة التي أوردها في باب "التخيير"؛ لتتبيَّن مصداق ذلك، إذ يقول:" ومن هذا النَّوع في الكتاب العزيز قوله تعالى:(إنَّ في السماوات والأرض لآياتٍ للمؤمنين* وفي خلقكم وما يبثُّ من دابة آياتٌ لقوم يوقنون* واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرّياح آياتٌ لقوم يعقلون)[٦٥]، فالبلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى "للمؤمنين"؛ لأنَّه سبحانه ذكر العالم بجملته حيث قال:(السماوات والأرض)، ومعرفة ما في العالم من الآيات الدَّالة على أنَّ المخترع قادرٌ عالمٌ حكيمٌ، فرعٌ على معرفة الصَّانع، ولا بدَّ من التصديق أولاً بالصَّانع حتّى يصح أن يكون ما في المصنوع من الآيات دليلاً على أنَّه موصوف بتلك الصفات، والتصديق هو الإيمان، وكذلك قوله في الآية الثانية: (لقوم يوقنون)، فإنَّ خلق الإنسان وتدبير خلق الحيوان وتفكّره في ذلك مما يزيده يقيناً في معتقده الأول، وكذلك معرفة جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، يقتضي رجاحة العقل؛ ليعلم أنَّ من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم الكلّيّ، بعد قيام البرهان على أنَّ للعالم الكلّيّ صانعاً مختاراً، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة (لقوم يعقلون)، وإن احتيج للعقل في الجميع، إلا أنَّ ذكره هنا أمسُّ بالمعنى من الأوّل"[٦٦]، ومن هنا يمكننا أن نخلص إلى القول إنَّ ابن حِجَّة استطاع بفضل منهجه هذا أن ينظر للبلاغة كما ينبغي أن تكون، فأحال طرق كشف جمالياتها إلى قطعٍ أدبيَّة رائعة، ولم يكتفِ بغرضها القاعديّ الجاف، أو التعليميّ البحت عن طريق تعزيز الشَّاهد للقاعدة، بل أراد أن يكون للشَّاهد ذوقٌ نقديٌّ خاصٌ يبرز قيمته للقارئ، وقد دعاه إلى ذلك رغبته في أن لا يكون الشَّاهد في عصره امتداداً لعصور الجمود السَّابقة له، يضاف إلى ذلك ما حبي به من دقّة في التأمُّل، وحس مرهف في تلمّس مواطن الجمال، وهذا واضح في كثير من شواهده، فهو إذا أُعجب بشاهد لا يتمالك إلا أن يعبّر عن هذا الإعجاب، ومثال ذلك ما أورده في باب "مراعاة النظير" ، إذ يقول:" ومن أحلى ما يُستعذب في الذّوق، من هذا النّوع، قول ابن مطروح:

لبسنا ثيابَ العناق مُزَرَّرَةً بالقُبَلْ

ومن شدَّة إعجابي بهذا البيت ضمّنته تضميناً لو سمعه ابن مطروح لطرح نفسه خاضعاً، وسلَّم إليّ مفاتيح بيته طائعاً، وهو:

ولمَّا خلعنا العذارَ فككنا طُوقَ الخجلْ
لبسنا ثيابَ العناقِ مُزَرَّرَةً بالقُبَلْ"[٦٧]

فابن حِجَّة يتحسس الجمال في هذا البيت ويتذوّقه، ولكنه لا يكتفي بذلك، بل يعمد إلى تفسير الإبداع بإبداعٍ مثله، ولا شكَّ في أنَّه في صنيعه هذا يكشف عن القيمة الجماليَّة لشواهده البلاغيَّة، وهذه من أهم السّمات التي يجب أن يتنبّه لها أرباب البلاغة في تدريسهم وكتاباتهم، فما نقم النَّاس على المتأخّرين من أصحاب الحواشي والاختصارات، إلا بسبب أساليبهم الجافة العقيمة التي لم تعتنِ بالجانب الجماليّ العناية المتوقعة.

ب. رفد الشَّاهد بشواهد أخرى مماثلة:

وهذه ظاهرة واضحة في كتاب "خزانة الأدب"، فابن حِجَّة غالباً ما يذكر، بعد الشَّاهد الذي يورده لما يريد، مجموعة من الشَّواهد قد لا يحلّلها ولا يعلّق عليها، وإنَّما يأتي بها لرفد الشَّاهد الأوّل وتدعيمه، ففي باب "التَّسهيل" . مثلاً . نجده يورد شاهداً شعرياً للتّمثيل به على هذا الفن، غير أنَّه لا يقف عند هذا الحدِّ، بل نجده يورد ثمانية عشر شاهداً متتالية، لا يفصل بينها إلا بتعليق يسير[٦٨]، وهذا دَيْدَنُه في كثير من أبواب خزانته، ولا سيما في "إرسال المثل"[٦٩]، و"الاقتباس"[٧٠]، و"الإلغاز"[٧١].

ففي هذه الأبواب . وغيرها . ما يُشعر بأنَّ ابن حِجَّة ما أتى بهذا العدد من الشَّواهد إلا وهو يقصد مزيداً من الإقناع للقارئ بالفكرة التي يريد، وفي الوقت ذاته يوجد له مادة تطبيقيَّة واسعة، ويترك له المجال ليجول بفكره في أسرار الجمال فيها، وهذه . ولا شك . طريقة فُقدت في عصر التّقعيد والتّقنين، يقول أحمد مطلوب:" ومع أنَّ كتب البلاغة العربيَّة يكاد يأخذ بعضها من بعض ، وتكاد مناهج بحثها تتفق إلى حدٍّ ما، نرى اتجاهين واضحين في طريقة بحثها، فمن البلاغيين من سيطرت على كتبهم النَّزعة الأدبيَّة، ومنهم من سيطرت على كتبهم النَّزعة الفلسفيَّة والعقليَّة، وكان نتيجة ذلك أن ظهرت مدرستان بلاغيتان، هما: المدرسة الأدبيَّة، والمدرسة الكلاميَّة،..... وكان لكلٍّ من هاتين المدرستين أو الطريقتين خصائصها، ومميزاتها،

---

٦٤. سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ١٥٦/٦.

٦٥. سورة الجاثية:٣.٥.

٦٦. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،١٠٦.١٠٥/٢.

٦٧. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب ،٣٤٠/٢.

٦٨. انظر،المصدر نفسه،٤٠٨.٤٠٢/٤.

٦٩. انظر،المصدر نفسه،١٩٠.١٢٥/٢.

٧٠. انظر،المصدر نفسه،٤٠١.٣٥٧/٤.

٧١. انظر،المصدر نفسه،٢٠٢.١٦٦/٤.

ورجالها الأعلام"[٧٢]، ولسنا هنا بصدد الحديث عن نشأة كلِّ واحدة من هاتين المدرستين، وذكر أعلامها، وزمنها، وخصائصها، وتكفي الإشارة إلى أنَّ المدرسة الأدبيَّة . التي تنتمي إليها خزانة ابن حِجَّة . لم تهتم بالتّحديد والتّقسيم للأنواع البديعيَّة اهتماماً كبيراً، كما أنَّها لم تعتمد على المنطق ومسائل الفلسفة، بل كانت تستعمل المقاييس الفنيَّة في الحكم على الأدب، مع سهولة العبارة، وسلاسة التّركيب، ووضوح الدّلالة، والإكثار من الشَّواهد الشّعريَّة والنّثريَّة، وعلى العكس من ذلك كانت المدرسة الكلاميَّة التي كان للفلسفة والمنطق أثرٌ كبيرٌ فيها، واعتمدت على تحديد الأنواع البلاغيَّة وتقسيمها، يضاف إلى ذلك الإقلال من الشَّواهد، وعدم البحث عن الشَّاهد الحسن المقبول، بل يكفي أن يكون الشَّاهد دالاً . وإن كان خالياً من أي قيمة جماليَّة . ليكون محطاً للاستشهاد به[٧٣].

وفي غمرة تنازع البلاغة بين هاتين المدرستين: مدرسة الأدب ويمثلها ابن المعتز (ت٢٩٦ هـ) ومدرسة المنطق ويمثلها السكاكي(ت٦٠٦هـ) ظهرت بديعيَّة ابن حِجَّة إلى جانب أخواتها من البديعيات بثوب شعريّ طريف، وشرح وافٍ، وشواهد ممتدة الأطراف، تمسح الإنتاج الشعريّ من منابعه الأولى حتّى عصر المؤلِّف، وأحسب أنَّ أحداً لم يبلغ ما بلغه ابن حِجَّة الحمويّ في هذا الجانب، أعني الإكثار من الشَّواهد منظومها ومنثورها، ورفد الشَّاهد الأوَّل بشواهد وأمثلة كثيرة توضّح الفن البلاغيّ المراد، وتربّي ذوق القارئ، وترتفع بمستواه كما ارتفعت بمستوى ذوق ابن حِجَّة الخاص، وهكذا يكون ابن حِجَّة . إلى جانب غيره من أصحاب البديعيات . قد عاد بالبلاغة إلى رياض الأدب وأحضان المدرسة الأدبيَّة، وخلّصها من قيود الفلسفة والمنطق والأحكام العقليَّة الجافة التي سيطرت على البلاغة، منذ بداية القرن السَّادس الهجريّ، إلى زمن ظهور بديعيَّته بشكل خاص والبديعيات الأخرى بشكل عام، ونحن . أيضاً . لا نجانب الصَّواب، ولا نذهب بعيداً إذا اتفقنا مع من يقول:" إنَّ ابن حِجَّة الحمويّ . بخزانته هذه . يعدُّ خاتمة الأدباء الذين انتهى إليهم فن الأدب والنقد إلى عصر النهضة الأدبيَّة الحديثة"[٧٤].

ج.عقد الموازنات بين الشَّواهد:

قد نجد عند غير ابن حِجَّة عناية بإجراء الموازنات بين الشَّواهد، لكنَّ الذي نجده عند هذا الرّجل شيء آخر، إذ إنَّ الموازنة عنده . ولا سيما الموازنة بين شاهده وشاهدي الشّيخ صفي الدين الحلّيّ والشّيخ عز الدين الموصليّ . هدف في حدِّ ذاته صرَّح به في مقدِّمة كتابه[٧٥]، فمن يطالع هذا الكتاب يجد فيه نزوع ابن حِجَّة إلى تطبيق هذه الموازنات تطبيقاً عملياً على شاهده وشاهدي هذين الشَّيخين، فهو بعد أن يفرغ من إيراد الشَّواهد المختلفة للنّوع البديعيّ الذي هو بصدده، يعود إلى البيتين المذكورين في بديعتي صفي الدّين الحلّيّ وعز الدّين الموصليّ، موازناً بينهما وبين بيت بديعيّته، ومشيراً إلى اتضاعهما عن بلوغ منزلة بيته، وتفوّقه هو في نظم بيته وحسن سبكه، ولتتضح لك صورة هذه الموازنات التي لا يكاد يخلو منها باب من أبواب الخزانة، يستحسن إيراد ما قاله ابن حِجَّة في باب "الاشتراك" ومناقشته له، ليتبين لك جنوح فكره إلى الموازنة بين شواهده البلاغيَّة، حيث يقول:" وبيت الشّيخ صفي الدين الحلّيّ، في بديعيّته، على هذا النّوع قوله:

شِيبُ المفارقِ يروي الضَّرْبُ من دمِهِمْ ذوائبَ البيضِ بيضِ الهندِ لا اللِّمَمِ

هذا البيت الاشتراك فيه بين "البيض" و "بيض الهند" فلولا "بيض الهند" التي ترشَّح بها جانب السّيوف بذكر "الهند"، لسبق ذهن السَّامع إلى أنَّه أراد الذَّوائب البيض، ولكنَّ بيت الشّيخ صفي الدين لم يَخْلُ من بعض عقادة،.....

وبيت الشّيخ عز الدّين الموصليّ في بديعيّته يقول عن النّبي، صلَّى الله عليه وآله وأصحابه وأزواجه وسلَّم:

وللغزالةِ تسليمٌ بهِ اشتركتْ مع التي هي ترعى نرجسَ الظّلمِ

هذا البيت يصلح أن يعدَّ من باب الإشارة في الجناس المعنويّ، فإنَّ الشّيخ عزّ الدّين أضمر أحد الرّكنين وأظهر الآخر، وهذا حدُّ جناس الإشارة من المعنويّ، فإنَّه ذكر "الغزالة" في أوَّل البيت، وأضمر "الغزالة الشَّمسيَّة" في الشّطر الثاني، وهذا النوع تقدَّم تقريره، ولو صرَّح الشّيخ عزّ الدّين في الشّطر الثاني بلفظ "الغزالة"، وذكر معها "الإشراق" و"النّور" بحيث يزيل وهم السامع أنَّ المراد "الغزالة الوحشيَّة"، ولا يتحقق أنَّ المراد "الغزالة الشمسية" وبالعكس، كان نوع الاشتراك في بيته خالصاً مع ما فيه من النَّظر، وهو أنَّ كلاً من الغزالتين سلَّم على النبي . صلَّى الله عليه وسلَّم . ولكنَّه أضمر لفظ "الغزالة" الثانية، فتحتَّم أنَّه صار جناساً معنوياً،.....

وبيت بديعيّتي أقول فيه عن النّبي . صلَّى الله عليه وسلَّم:

بالحِجْرِ سادَ فلا نِدٌّ يشاركُهُ حِجْرَ الكتابِ المبينِ الواضحِ اللّقمِ

هذا البيت يجب أن يعتمد عليه في نظم هذا النّوع، فإنَّ بيت الشّيخ صفي الدّين الحلّيّ لا يخفى على أهل الذّوق السّليم ما في تركيبه من العقادة،..... وبيت الشّيخ عزّ الدّين الموصليّ فقد تقرَّر أنَّ الجناس المعنويّ أحقُّ به، واشتراك بيتي في لفظة "الحِجْر" فإنّي قلت في أوّل البيت " بالحِجْر ساد" وهذه اللفظة مشتركة بين "العقل" و"سورة الحجر"، فلمَّا قلت في الشّطر الثاني "حِجْرَ الكتاب المبين" زال

---

٧٢. مطلوب، أحمد: دراسات بلاغيَّة ونقديَّة، دار الرشيد للنشر، (د.ط)، ١٩٧٨م، ص١٣-١٤، وانظر، أبو زيد،علي: البديعيات ....، ص٢٥٨- ٢٥٩.

٧٣. انظر، مطلوب، أحمد: دراسات بلاغيَّة ونقديَّة، ص٢٣.١٥، وأبو زيد، علي: البديعيات ....، ص٢٥٩.

٧٤. سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك،١٦٦/٦.

٧٥. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٣٠٤/١-٣٠٥.

الالتباس عن السَّامع، وعُلِمَ المراد، وترشّح عنده جانب السورة المنزلة على الممدوح فيه، صلَّى الله عليه وسلَّم"[٧٦]، ولقد أوردتُ هذا النّص كاملاً؛ لأظهر ما تميّز به ابن حِجَّة من روح نقديَّة بديعيَّة دفعته إلى الموازنة بين الشَّواهد ومناقشتها مناقشة دقيقة، بيَّن من خلالها تعسّف الحلّيّ في نظم بيته حتّى اضطر إلى العقادة والغموض، في حين أنَّ الموصليّ لم يصب الهدف المقصود في بيت بديعيّته، ومن هنا يدّعي ابن حِجَّة الأفضلية لبيته هو، ويتخذ من هذه الموازنة . كما نوّهنا قبل قليل . وسيلةً لتحقيق غايته الأولى التي نظم بديعيّته في سبيلها، ألا وهي معارضة الحلّيّ والموصليّ، وإظهار قصورهما عن بلوغ منزلته، وذلك من خلال الموازنة التي اتخذها مقدِّمة للوصول إلى التّدليل على حسن صنيعه، وتفوّقه على عميدي فن البديعيات في عصره، ومثل هذه الموازنات بين أبيات البديعيَّات الثلاث مبثوثة في خزانته بكثرة، ويمكن الرّجوع إليها في آخر كلِّ بابٍ من أبواب الخزانة البالغة مئة واثنين وأربعين باباً.

وقد ظلَّ هاجس الموازنة يراود ابن حِجَّة، لهذا فإنَّها لم تقف عند شاهده وشاهدي صفي الدّين الحلّيّ وعزّ الدّين الموصليّ فحسب، بل اتسعت دائرتها لتشمل الكثير من شواهده، وقد تكون الموازنة بين أبيات من الشّعر، أو بين فقرات من النّثر، فكلُّ ذلك وارد عند ابن حِجَّة في خزانته، ولا سيما في معرض تطبيقه لآرائه النَّظريَّة في النّقد، فهو مثلاً يؤكّد في باب "حسن الابتداء وبراعة الاستهلال" . كما يؤكّد المتقدِّمون من أهل البلاغة . على ضرورة مراعاة الحالة النفسيَّة للمخاطَب، إذ ينبغي للمتكلِّم أن يراعي المقام الذي يلقي كلامه فيه، حتّى لا تندُّ عباراته عن مقتضياتها[٧٧]، ورأيه هذا هو الذي دفعه للاستفاضة في الحديث عن براعات الاستهلال، وعقد الموازنات بين الجيد والرديء منها شعراً ونثراً، فقد وازن بين بيتي إسحاق بن إبراهيم الموصليّ وأبي نواس، فقال:" وأمَّا قصة إسحاق بن إبراهيم الموصليّ في هذا الباب، فإنّي أنفعل وأخجل عند سماعها، وما ذاك إلا أنَّه دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصره بالميدان، فشرع في إنشاء قصيدة نزل بمطلعها إلى الحضيض، وكان هو وحكاية الحال في طرفي نقيض، وهو:

يا دارُ غيَّرَكِ البِلى ومحاكِ يا ليتَ شعري ما الذي أَبْلاكِ

فتطيَّر المعتصم من قبح هذا الابتداء، وأمر بهدم القصر على الفور،..... فانظر إلى هذا الأديب الحاذق المتيقظ، كيف استطردت به خيول السَّهو، إلى أن خاطب المعتصم في قصرٍ رياحينُ تشييده غضَّة بخطاب الأطلال البالية، وانظر إلى حشمة أبي نواس كيف خاطب الدّمن بخطاب تودُّ القصور العوالي أن تتحلّى بشعاره، مع بلوغه في تناسب القسمين الطرف الأقصى، وهو:

لِمَنْ دِمَنٌ تزدادُ حُسْنَ رُسومِ على طولِ ما أقوتْ، وطيبَ نسيمِ"[٧٨]

ثمَّ انتقل بعد ذلك ليوازن بين براعات الاستهلال في النّثر، فحمل على بعض الاستهلالات؛ لأنَّها لم تفِ بالشّروط المقرَّرة للبراعة، أو لأنَّها لم تناسب المقام الذي أُلقيت فيه، ومن ذلك خطبة الخطيب المشهور أبي يحيى عبد الرحيم بن نُباتة الفارقيّ في ذكرى وفاة النَّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– فإنَّه استهلها بقوله:" الحمدُ لله المنتقم ممّن خالفه، المهلك من آسفه"[٧٩]، وقد عقَّب عليها ابن حِجَّة، فقال:" إنَّها شغلت أفكاري مدَّة ولم يسعني غير السّكوت والإحجام عنها..... ولقد اعتذر عنها جماعة من كبار العلماء"[٨٠]، وفي الوقت ذاته نجده يستحسن بعض الاستهلالات في هذه الذّكرى ويثني عليها، ومثال ذلك قوله:" وما أحشم ما استهلَّ الشّيخ جمال الدّين أبو الفرج بن الجوزيّ في خطبة وفاة النَّبي . صلَّى الله عليه وسلَّم . بقوله:الحمدُ لله الذي استأثر بالبقاء، وحُقَّ له أن يستأثر، وحكم بالفَناء على سكان هذا الفِناء، فأذعنوا لحكمه القاهر"[٨١]، وهذه الأمثلة قليل من كثير، وقد بدا لنا من خلالها ذوق ابن حِجَّة في حسن اختيارها، ودقَّته في التعقيب عليها، والموازنة بينها بأسلوب أدبيّ جميل، ولا مبالغة إذن، إذا نوّهنا بهذه الخطوة الهامَّة التي خطاها في سياق عرضه للشَّواهد، ثمَّ إذا عددناه آخر رجل بلاغيّ ناقد متذوّق له رأي، ردَّ على البلاغة رواءها، وعلى النقد نضارته حتّى عصرنا الحديث.

د. لمحات نقديَّة:

لابن حِجَّة في هذا الكتاب خصوصية قيّمة . وهي مشتركة بين بعض كتبه . تتمثَّل في الآراء واللمحات النقديَّة التي لوَّن بها صفحات خزانته أثناء عرضه لشواهده البلاغيَّة، ولهذا فإنَّ الأهمية الأدبيَّة لهذا الكتاب لا تقتصر على هذا الكم الهائل من الشَّواهد التي تضمَّنها، بل كانت تمرُّ إشارات نقديَّة كثيرة، توضّح منهجه في النّقد بشكل خاص، وتشير إلى ملامح النّقد وأسسه في عصره بشكل عام[٨٢]، ولعلَّ أشهر القضايا النقديَّة التي نبَّه إليها ابن حِجَّة "قضية السّرقات الشّعريَّة"، حيث أشار في سياق عرضه لشواهد "التورية" إلى هذه القضية، وأطال الوقوف عليها، ولكنه في الواقع لم يزد على ما قاله المتقدِّمون ممّن تعرَّضوا لهذه القضية، ولعلَّ فضله يبدو في أنَّه تتبع سرقات معاصريه وبيَّنها، فهذا باب لم يقتحمه مُقتحِمٌ قبله، فنحن كثيراً ما نجده يقف عند هذه السّرقات، ويشير إليها، مبرهناً بذلك على سعة اطلاعه، وقدرته

---

٧٦. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٤/٤٨.٥٠.

٧٧. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،١/٣١١.

٧٨. انظر، المصدر نفسه،١/٣١٢.٣١٣.

٧٩. الجزائريّ، طاهر بن صالح: شرح خطب ابن نباتة، قدّم له واعتنى به: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص ١٠٢، والحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب ،١/٣٦٢.

٨٠. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،١/٣٦٢.

٨١. المصدر نفسه،١/٣٦٢.

٨٢. انظر، أبو زيد،علي: البديعيات ....، ص٢٠٧–٢٠٨.

على كشف الحقائق والتّمحيص والنّقد، وهذا واضح في حديثه عن سرقات جمال الدّين بن نُباتة من علاء الدين الوداعيّ[٨٣]، وحديثه عن سرقات صلاح الدّين الصفديّ من جمال الدّين بن نُباتة، إذ يقول:" لكنَّ الجزاء من جنس العمل، كما أغار الشَّيخ جمال الدّين على الوداعيّ، ودخل إلى بيوته، وابتذل حجاب بنيّات فكره، قيَّض الله له الشّيخ صلاح الدّين الصفديّ، فإنَّ الشيخ جمال الدّين كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه، ويُسْكِنُه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن، فيأخذه الشيخ صلاح الدّين الصفديّ بلفظه، ولم يغيّر فيه غير البحر،....."[٨٤]، ثمَّ يورد نماذج كثيرة من المعاني التي سرقها الشّيخ صلاح الدّين من ابن نُباتة، وكلُّ ذلك في معرض إيراد شواهد التورية.

وخزانة الأدب في الحقيقة عامرة بمثل هذه اللقطات النقديَّة النَّظريَّة التي تتبعها الدَّارسون المحدثون[٨٥]، وصفحاتها . في الغالب . مَعْرِض للنّقد التطبيقيّ الصَّائب، وهذا النّقد هو الذي يهمّنا في هذا المجال، فابن حِجَّة لا يورد شواهده مجرَّدة من النّقد والتعليق، بل يقف على معظم هذه الشَّواهد وقفات نقديَّة فاحصة، تدلُّ على مقدار تذوّقه للأدب، ومن ذلك . على سبيل المثال . ما أورده في باب "مراعاة النّظير"، إذ يقول:"فمن المستحسن في هذا النّوع قول بعضهم في غلام معه خادم يحرسه:

ومن عَجَبٍ أنْ يحرسُوكَ بخادمٍ وخدَّامُ هذا الحسن مِنْ ذاكَ أكثرُ
عذارُكَ رَيحانٌ وثغرُكَ جوهرٌ وخدُّكَ ياقوتٌ وخالُكَ عنبَرُ

هذا الأديب المتمكِّن ناسب بين "العذار" و"الثغر" و"الخدّ" و"الخال"، إذ الوجه لمصابيح هذه المحاسن جامع، وبين "ريحان" و"جوهر" و"ياقوت" و "عنبر"، لملاءمة في أسماء الخدّام، فلو ذكر شيئاً مع غير مناسب كان نقصاً وعيباً، وإن كان جائزاً فإنَّهم عابوا على أبي نواس قوله:

وقد حلفتُ يميناً مَبْرورةً لا تُكذَّبْ
بربِّ زمزمَ والحو ضْ والصَّفا والمحَصَّبْ

فالحوض هنا أجنبيٌّ من المناسبة؛ لأنَّه ما يلائم "المحَصَّب" و" الصَّفا" و"زمزم"، وإنَّما يناسب "الصّراط" و"الميزان" وما هو منوط بيوم القيامة.

ومثله في عدم المناسبة قول كميت:

وقد رأينا بها حَوْرَا منعَّمة بَيْضَا تكامَلَ فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ

فإنَّهم قالوا: إنَّ "الدَّلَّ" لا يناسب "الشَّنب"، وهو صحيح، فإنَّ "الشَّنب" من لوازم "الثَّغر"، فلو ذكر معه "اللعس" وما يلائم ذلك، مشى على سنن المناسبة ، وخلص من النقد"[٨٦]. فهذا النَّموذج إلى جانب غيره من النَّماذج المشابهة له . وهي كثيرة . يبرهن لنا بصورة واضحة أنَّ منهج ابن حِجَّة في التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ كان منهجاً أدبياً بذوق نقديّ، فشواهده . كما تلاحظ . موضَّحة بتعليقات ونقدات "تشعرك أنَّك إزاء أديب ذوّاقة ونقّادة، لا عالم مشغوف بالتّقليد والإعادة"[٨٧]، فهو يحاول، من خلال هذه الوقفات النقديَّة، أن يعالج وضعاً أدبياً رام تحنيط الشَّواهد البلاغيَّة في قوالب جاهزة على يد كلٍّ من السّكاكي والقزويني.

وانطلاقاً من هذا الحس النقديّ الذي تمتَّع به ابن حِجَّة، نستطيع أن نحدّد سبب الاقتصاد في إيراد الشَّواهد البلاغيَّة في بعض الأبواب، إذ إنَّه لم يكن مجرد مقتفٍ لمن سبقه من البلاغيين في عنايتهم بالأنواع البلاغيّة، بل كانت له مواقف صريحة من بعض هذه الأنواع، إذ كثيراً ما كان يصرّح بجودة هذا النوع، واستحسانه له، وإعجابه به، أو يشير إلى استهجانه لبعض الأنواع، وأنَّه ما نظمها إلا من باب المعارضة، ولهذا جاءت شواهدها قليلة، ومن هذه الأنواع التي أنف من الاستفاضة فيها ، ولم يستطرد في ذكر شواهدها: التّفصيل، وعتاب المرء نفسه، وتشابه الأطراف، والمماثلة، والتفويف ، والقسم، إذ قال في معرض حديثه عن التفصيل:" التفصيل، بصاد مهملة، نوع رخيص بالنسبة إلى فن البديع والمغالاة في نظمه، وقد نبَّهت قبله على عدَّة أنواع سافلة، ولكنَّ المعارضة أوجبت الشروع في نظمه كالتصدير، وعتاب المرء نفسه، وتشابه الأطراف، وما أشبه ذلك"[٨٨]، وأين هذه الأنواع البلاغيَّة من براعة الاستهلال وحسن الابتداء، والجناس، والاستعارة، وإرسال المثل، والاقتباس، والتشبيه، وغيرها من فنون البلاغة التي أفاض ابن حِجَّة في ذكر شواهدها، لما لها من أثر واضح في أساليب المنشئين في عصره حسبما رأى في خزانته، وهكذا فإنَّ ابن حِجَّة يستطرد في ذكر شواهد الفن البلاغيّ، إذ كان ذا سيطرة على أساليب عصره، في حين أنَّه يقتصد في هذه الشَّواهد إذا كان الفن البلاغيّ قليل الظهور في أساليب معاصريه، ولهذا يمكن القول إنَّ الشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة يعكس الطَّابع الثّقافي لعصره.

المبحث الثاني:

المآخذ والعيوب

وبعد هذا كلّه يبقى للشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة الحمويّ جملةٌ من المآخذ، لا بدَّ من الوقوف عليها قبل أن نختم هذا البحث، وأوّل ما يمكن أن نلاحظه من هذه المآخذ هو أنَّ ابن حِجَّة ما كان ليكتفي . في أغلب الأحيان . بعرض الشَّواهد المستجادة المناسبة لما يريد، وإنَّما

---

٨٣. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٣/٣١٠.٢٩١.

٨٤. المصدر نفسه،٣/٣١١.٣١٠.

٨٥. انظر، الربداوي، محمود: ابن حِجَّة الحمويّ ....، ص٢٢٩.٢١٦.

٨٦. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٢/٣٣٩.٣٣٨.

٨٧. سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك،٦/١٦٥.

٨٨. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٣/١٢٢.

كان يبحث عن الشيء المستقبح من الشعر أيضاً، فهو لم يتورّع في باب "سلامة الاختراع" . مثلاً . من إيراد بعض الشواهد الشعريَّة الفاحشة[٨٩]، التي يجدر بأرباب الأدب أن يربأوا بأنفسهم عن ذكرها أو التلفّظ بها، ولا سيما إذا عرفنا أنَّ ابن حِجَّة كان قادراً على أن يأتي ببديل عنها، لأنَّه إنَّما أوردها في مجال التمثيل على الأنواع البديعيَّة، وكيف له أن يستشهد بمثل تلك الأشعار في كتابه، وهو الذي وضع للبديعيَّة شروطاً وقواعدَ في " الأدب والاحتشام" لكونها مديحاً نبويّاً؟[٩٠]،إذ يقول:" وهنا فائدة، وهي أنَّ الغزل الذي يُصدّر به المديح النبويّ يتعيّن على النَّاظم أن يحتشم فيه ويتأدَّب ويتضاءل ويتشبَّب، مطرباً بذكر: سَلْع ورامة وسفح العقيق و..... ويطّرح ذكر محاسن المُرْد والتغزّل في ثقل الرّدف، ورقّة الخصر، وبياض الساق، وحمرة الخدّ، وخضرة العذار، وما أشبه ذلك، وقلَّ من سلك هذا الطريق من أهل الأدب"[٩١]، وهل يعني ذلك أنَّ على النَّاظم أن يحسن أدبه في نظم أبيات بديعيته، ويترك الأدب والاحتشام والتعفّف في شرحه لها، أو عند ذكر الشَّواهد التي توضّح الأنواع البديعيَّة التي تضمّنتها هذه الأبيات.

وممّا يسترعي انتباه القارئ في "خزانة الأدب" أيضاً ظاهرة الإطالة والاستطراد في ذكر الشَّواهد الشّعريَّة، التي قد تبلغ حدَّ الملل أحياناً، فقد أورد . مثلاً . في باب "إرسال المثل" كلَّ ما استحسنه من حكم وأمثال أبي الطّيب المتنبي، فبلغت أكثر من ثلاثمئة بيتٍ[٩٢]، ولم يكتفِ بهذا بل أورد كتاباً كاملاً له في الاستشهاد على هذا النوع البديعيّ، وهو كتابه المسمّى بـ "تغريد الصّادح" الذي يشتمل على أرجوزة من الحكم والأمثال[٩٣]، ونحن إذا علمنا انَّ شواهد باب "التورية" استغرقت ثلاثمئة وأربعاً وستين صفحةً، أي ما يعادل ربع الكتاب تقريباً، عرفنا مدى ما وصلت إليه الإطالة والاستطراد عند ابن حِجَّة في شواهد خزانته، ولا يفوتنا أن نشير في هذا السياق إلى أنَّ ابن حِجَّة أحسَّ بهذه الظاهرة في شواهده، لذلك كان يبرّر تطويله بين الحين والآخر بمثل قوله:" وقد آن أن أحبس عنان القلم، فإنَّ الشّرح قد طال، ولم أطله إلا ليزداد الطالب إيضاحاً، ويداوي علل فهمه بحكم المتقدِّمين، ويتنزّه في رياض الأدب على النبات الغض من نظم المتأخِّرين"[٩٤]، وفي مواضع أخرى كان يتحاشى الوقوع فيها، فيقول:" ولولا الإطالة لأفعمتُ الأذواق من هذا السّكر النباتيّ"[٩٥]، و" لولا خوف الإطالة لذكرتُ....."[٩٦].

وظاهرة أخرى نلحظها في شواهد ابن حِجَّة هي ظاهرة "التّكرار"، فكثيراً ما نجده يكرّر البيت أو الأبيات غير مرة، في غير موضع، ولعلَّ ذلك يعود – كما ترى كوكب دياب– لما يقتضيه الاستشهاد على النوع البديعيّ بأبيات يمكن الاستشهاد بها على أنواع بديعيَّة أخرى[٩٧]، كما في شواهد "اللف والنشر" و"الإيضاح" إذ استشهد لهذين النوعين البديعيين بالبيتين الآتيين:

ومُقَرْطَقٍ يغني النديمَ بوجهِهِ عن كأسِهِ الملأى وعن إبريقِهِ
فعلُ المدامِ ولونُها ومذاقُها من مقلتيه ووجنتيهِ وريقِهِ
(٩٨)

ونحن إذا بحثنا في كتابه عن هذه الشَّواهد المكرَّرة، وجدنا معظمها فيما أورده ابن حِجَّة من شعر جمال الدين بن نُباتة الذي أخذه عن علاء الدين الوداعيّ.

ليس هذا فحسب، بل إنَّ ابن حِجَّة يصرّح . في كثير من الأحيان . بإعجابه بشاهدٍ ما دون أن يفسّر أو يعلّل سبب هذا الإعجاب، فهو في معرض تعليقه على براعة استهلال جمال الدين بن نُباتة في قصيدته التي مطلعها:

هناءٌ محا ذاكَ العزاءَ المقدَّما فما عبَّسَ المحزونُ حتّى تبسَّما

يقول:" سبحان المانح! والله مَنْ لا يتعلَّم الأدب من هنا، فهو من المحجوبين عن إدراكه"[٩٩]، وكذلك نراه يفعل عندما يعجب باستهلال آخر،إذ يقول:" الله أكبر! إنَّ من البلاغة لسحراً، والله ما أظن أنَّ هذا الاتفاق الغريب اتفق لناثر،..... وهذا المثال الشريف ليس له مثال"[١٠٠]، أو نراه يقول:" يُستغنى بهذه البراعة عن الرسالة"[١٠١]، فلماذا هذا الإعجاب والاستحسان؟ وما المعيار في ذلك؟ فابن حِجَّة لا يفصح عن شيء من ذلك.

وأخيراً، يبقى هذا الكتاب . على الرّغم من الملاحظات السابقة . مكتبة أدبيَّة وبلاغيَّة ونقديَّة لا يمكن لمن أراد أن يكوّن موروثاً بلاغيّاً وثقافيّاً ضخماً أن يتناساه، فمصطلحاته وشواهده البلاغيَّة مؤثِّرة في كلِّ دارس، وصدق ابن حِجَّة الحمويّ عندما قال فيه:" إذا ملكه مُتأدِّبٌ شرفت نفسه عن النّظر في غيره من تذاكر الآداب، فإنّي ما تركتُ

٨٩. انظر، المصدر نفسه، ٢١١/٤.٢١٥.
٩٠. انظر، المصدر نفسه،" مقدِّمة المحقِّق"،٢٩٧/١، والخرشة، أحمد: المصطلح البلاغي والنقدي ...، ص ٣٠.
٩١. الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب، ٣٤٢/١.٣٤٤.
٩٢. انظر، المصدر نفسه،١٣٢/٢.١٧٧.
٩٣. انظر، المصدر نفسه،١٧٩/٢.١٨٩.
٩٤. المصدر نفسه، ٣٢٩/١.
٩٥. المصدر نفسه،٣٨٢/١.
٩٦. المصدر نفسه،٣١/٣.
٩٧. انظر، المصدر نفسه،" مقدِّمة المحقِّق"،٢٩٧/١– ٢٩٨ ، والخرشة، أحمد: المصطلح البلاغي والنقدي ...، ص ٣٠.
٩٨. انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة: خزانة الأدب،٤/٢،٢٣٩/٦١.
٩٩. المصدر نفسه،٣٤١/١.
١٠٠. المصدر نفسه،٣٥١/١.
١٠١. المصدر نفسه،٣٥٩/١.

نوعاً من أنواع البديع إلا أطلقتُ عنان القلم في ميادين الطّروس، مستطرداً إلى استيعاب ما وقع من جيده ورديئه، ونصبتُ فيه البحث بين المقصِّرين والمجيدين"[١٠٢].

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث، لا بدَّ من إلقاء نظرة سريعة عليه لاستعراض أهم النَّتائج التي توصّلتُ إليها من خلاله:

١. يعدُّ كتاب"خِزانة الأدب وغاية الأرب" لابن حِجَّة الحمويّ مصدراً أصيلاً من مصادر معرفة فنون البلاغة العربيَّة، وتأتي قيمته من هذه الوجهة من أنَّه لم يكن مَحْضَ نظريٍّ، بل كان جامعاً للمطلبين معاً، فهو كتاب تعليميٌّ من وجهة، وأدبيٌّ من وجهة أخرى، وبلاغيٌّ بديعيٌّ من وجهة ثالثة:

- أمّا كونه تعليميَّاً فلأنَّه كان يقدّم شواهد بلاغيَّة كثيرة بعد شرح الفن (المصطلح) البلاغيّ وتوضيح حدوده وتعريفاته.
- وأمَّا كونه أدبيَّاً فلأنَّ مؤلِّفه أودع بين دفتيه ثمرة ما يزيد على مئة مصنَّف، تتراوح بين ديوان شعر، وكتاب بلاغة ونقد، أو كتاب أدب وترجمة وتاريخ ولغة، فهو لم يدع عصراً لم يأخذ من نتاج أدبائه بقدر، وكان لشعراء العصرين الأيوبيّ والمملوكيّ الحظ الأوفر، حيث بلغت أشعارهم من الكثرة ما يوازي نصف الكتاب، ونحن لا نكاد نجد لها ديواناً أو مصدراً غيره.
- وأمَّا كونه بلاغيّاً بديعيّاً فلتَخَصُّصِهِ في هذه الوجهة واقتصاره عليها، وفقاً لما يتطلّبه فن البديعيَّات من اشتمال كلِّ بيت من أبياتها على لون من ألوان البديع (البلاغة).

٢. عني ابن حِجَّة الحمويّ بالشَّاهد البلاغيّ عنايةً كبيرةً، إيماناً منه بأهمية هذا الشَّاهد في تربية ذوق المتلقي، ودعوته لمعرفة أسرار الجمال في البلاغة العربيَّة، فجاءت شواهده متنوّعة من القرآن الكريم، والحديث النبويّ الشّريف، والشّعر العربيّ، والنّثر العربيّ من مختلف فنونه، كالرَّسائل، والأمثال، والخطب، والمناظرات، والمقامات، فحافظ بذلك على الوجه الجماليّ للبلاغة العربيَّة، وابتعد بها عن دائرة الثَّبات والنَّمطيَّة التي سيطرت على البلاغة منذ بداية القرن السَّادس الهجريّ وحتى ظهور البديعيَّات وشروحها.

٣. يستطيع الباحث أن يصنّف ابن حِجَّة الحمويّ ضمن أتباع المدرسة الأدبيَّة في تاريخ التَّأليف البلاغيّ عند العرب؛ لأنَّه أكثر من إيراد الشَّواهد والأمثلة الأدبيَّة شعراً ونثراً، وكان . غالباً . ما يأتي بأمثلة تتجاوز الصّفحات، ولم تكن شواهده مقصورةً على بيت من الشّعر أو جملة من النّثر، وإنّما تعدّتها إلى القصيدة الشّعريَّة، وإلى الرّسالة أو المقامة الأدبيَّة.

٤. برزت شخصية ابن حِجَّة الحمويّ واضحة جليّة فيما يورد من شواهد، وقد تجلّت معالم هذه الشخصية في جانبين، أولهما: ثقته بنفسه وإكثاره من الاستشهاد بأمثلة من شعره ونثره، إضافة إلى شعر أصدقائه ومعاصريه، وثانيهما: اعتماد "الذوق" أساساً لاختيار شواهده البلاغيَّة، فهو يستشهد بالبيت أو الأبيات الشّعريَّة والنّصوص النَّثريَّة لما يحسّه فيها من فنيَّة عالية، أو يستجيده فيها من معانٍ معوّلاً على ذوقه الذي تعهّده بالعناية والتّدريب.

٥. استطاع ابن حِجَّة الحمويّ أن يتعامل مع الشَّاهد البلاغيّ في خزانته وفق منهج يرتكز على المحاور الآتية: بيان قيمة الشَّاهد البلاغيّ، ورفد هذا الشَّاهد بشواهد أخرى مماثلة، وعقد الموازنات بينها، وأخيراً الوقوف على بعض القضايا والإشارات النقديَّة خلال عرضها، وغير ذلك من دعائم أسلوبه التي أتاحت له أن يقدّم للدَّارس أثراً أدبياً، وفكراً بلاغياً، يعكس سمة القرن التَّاسع الهجريّ، فهو لم يقف مثلما وقف أصحاب مؤلَّفات البلاغة في القرون السَّابقة . السَّادس والسَّابع . أمام المصطلحات البلاغيَّة، عارضين إياها قاعدة جامدة، تشبه إلى حدٍّ قريب القاعدة النحويَّة، لها شاهدٌ يوضّحها، فيحفظ الدَّارس هذه القاعدة ويتمثّلها بهذا الشَّاهد، وإذا ما افتقدته الذَّاكرة ذهب هذا المصطلح، وأصبح نسياً منسياً، وإنّما أرى ابن حِجَّة في هذا الكتاب عالماً متعلِّماً، يعرض فنون البلاغة بطريقة تثري معلومات القارئ بكم هائل من الشَّواهد المتنوّعة التي لا يستطيع أن يتناساها.

٦. ظهر لنا أنَّ الدِّراسات التي تناولت الشَّاهد البلاغيّ وقيمته . على الرّغم من أهميته . تبدو قليلة جداً إذا ما قيست بالدِّراسات النّحويَّة والصّرفيَّة والأدبيَّة الأخرى، ولهذا فإنَّ الباحث يدعو إلى إيلاء هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام من خلال العودة إلى المصادر البلاغيَّة ودراسة شواهدها دراسةً وافيةً تعيد للبلاغة رونقها، كما ظهر . أيضاً . أنَّ البلاغة العربيَّة تحتاج اليوم من دارسيها إلى الإفادة من منهج ابن حِجَّة في التَّعامل مع شواهدها؛ لتكون سهلة التناول؛ لأنَّ من أجلِّ مقاصدها تفسير مواطن الجمال وإظهارها للمتلقي.

المصادر والمراجع

١. الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة بين أبي تمام والبحتري**، تحقيق: السّيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.

٢. الأندلسيّ، أحمد بن محمد بن عبدربه: **العقد الفريد**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٣. الجزائريّ، طاهر بن صالح: **شرح خطب ابن نباتة**، قدَّم له واعتنى به: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

[١٠٢]. المصدر نفسه،٤/٤٥٠-٤٥١.

٤. الحمويّ، أبو بكر بن علي بن عبدالله بن حِجَّة: **خزانة الأدب وغاية الأرب**، دراسة وتحقيق: د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٥. الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د،ط)، (د.ت).

٦. الخرشة، أحمد: **المصطلح البلاغي والنقدي في كتاب "خزانة الأدب وغاية الأرب" لابن حِجَّة الحموي**، رسالة ماجستير ، جامعة مؤتة، ٢٠٠٤م.

٧. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت:**كتاب البخلاء**، عناية: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٨. خليفة، حاجي: **كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الفكر،(د.ط)، ١٩٨٢م.

٩. الرّبداوي، محمود: **ابن حِجَّة الحمويّ شاعراً وناقداً**، دار قتيبة، دمشق،(د.ط)، ١٩٨٢م.

١٠. أبو زيد، علي: **البديعيَّات في الأدب العربيّ (نشأتها، تطوّرها، أثرها)**، عالم الكتب، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.

١١. السّخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: **الضّوء اللامع لأهل القرن التَّاسع**، دار الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

١٢. سليم، محمود رزق: **تقي الدين بن حِجَّة الحمويّ**، دار المعارف، مصر، (د.ط)، ١٩٦٢م.

.: **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلميّ والأدبيّ**، مكتبة الآداب، الجماميز،(د.ط)، (د.ت).

١٣. الشّوكاني، محمد بن علي: **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التَّاسع**، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

١٤. ضيف، شوقي: **البلاغة تطوّر وتاريخ**، دار المعارف، ط٨، ١٩٩٧م.

١٥. العطوي، عويض بن حمود: **منهج التَّعامل مع الشاهد البلاغيّ بين عبد القاهر وكل من السكاكي والخطيب القزويني**، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشَّريعة واللغة العربيَّة وآدابها، ج١٨، ع٣٠، ١٤٢٥هـ.

١٦. مبارك، زكي: **المدائح النبويَّة في الأدب العربيّ**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، (د.ط)، ١٩٣٥م.

١٧. المراغي، أحمد مصطفى: **تأريخ علوم البلاغة العربيَّة والتَّعريف برجالها**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٩٥٠م.

١٨. المرزوقيّ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن: **شرح ديوان الحماسة**، نشره: أحمد أمين، وعبدالسَّلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، ١٩٩١م.

١٩. مطلوب، أحمد: **دراسات بلاغيَّة ونقديَّة**، دار الرّشيد للنشر،(د.ط)، ١٩٧٨م.

٢٠. المنذري، الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي: **مختصر صحيح مسلم**، حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه ووضع فهارسه: د.مصطفى ديب البغا، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٣، ٢٠٠٠م.